ت س
53

التصوف في الإسلام

منابعه وأطواره

777

ذخيرة

بقلم
محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر

١٩٦٧

ت ف
١٣٠

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
لصاحبها
حسين محمد امبابي المنياوي
١ شارع الصنادقية بميدان الأزهر

التصوف في الإسلام

منابعه وأطواره

بقلم

محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين

بجامعة الأزهر

١٩٦٧

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

لصاحبها

حسين محمد امبابى المنياوى

١ شارع الصنادقية ميدان الأزهر

Marfat.com

53515

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة وتمهيد :

الحمد لله الذى أيقظ قلوب خواص أوليائه بإشراق شمس شهوده ، حتى سطعت فى آفاقها أنوار معرفته ، فهاموا وجدا فى منازل عبوديته ، وهبت على أرواحهم من فراديس رضوانه نسائم قدسه ، وأشهدهم عوارف فضله فى شهود إنعامه ، فلم تشغلهم النعم عن الإنعام ، ولم يحجبهم الانعام عن سبحات أنوار المنعم ، وزج بهم فى عوالم الملكوت فلم يلتفتوا ، بل سبحوا فى بحار التجليات ، وهناك شربوا من كؤوس القرب فأونسوا فاستأنسوا ، وذهبت عنهم وحشة الغربة بنداء المحبة ، فوقفوا فى صحوة أدب ذل العبودية ينادون مناجين « سبحانك لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» فالعجز أوصلهم ، والوصول أدبهم ، وذل التعبد كملهم ، أحبهم ، وبحبه أحبوه ، وقربهم ، وبتقريبه شاهدوه . شهود تفرده بالوجود ، وبه كانوا فى بقاء الفناء عن أنفسهم عبيد إحسانه ، فأحل عليهم رضوانه الذى به يحيون مع هذه الحياة ، وفى بحبوحة جناته يعيشون ، أحياء عند ربهم يرزقون ، دنياهم برزخ لخلودهم ، تعلموا فعلموا . ونودوا فهبوا وطلبوا فشدوا ، غرباء بين الناس ، يضنيهم الحنين إلى وطنهم الأول ، ويسوقهم الشوق على نجائب الرجاء فى مفاوز الخشية ، لايتروحون إلا إذا أنزلوا منازلهم (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

Marfat.com

والصلاة والسلام على عين حقيقة الوجود الأكمل فى بشرية الشهود ، حامل لواء الحمد يوم لايوم بعده ، الشرف فيه هو الشرف الأشرف ، والتكريم فيه هو الإكرام الأكرم ، آدم فمن بعـــده من سائر النبيين والمرسلين ، الخليل والكليم والروح مستظلون بظل شفاعته تحت لوائه .

المبعوث خاتماً والمرسل رحمة ، الذى أقام الله به معالم الهداية إلى وحدانية الوجود الأقدس ، وأمده بسر قيوميته فانكشفت له حقائق التجليات الصمدانية انكشافا انفرد به فى مقام (مازاغ البصر وماطغى) وكانت له بذلك منزلة (الحبيب) فرأى مارأى ، وسمع ماسمع ، وشهد ماشهد ، وعلم ماعلم وتحقق بأقرب مشاهد القرب ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، وأوحى إليه ماأوحى ، وتطابق مشهد الفؤاد بمرأى البصر ، حيث لاكيف ، ولا أين ، وتمت له وعليه نعمة ربه الكبرى ، وسجد تحت عرش الجلال فى مقام (لعلك ترضى) فكان المطلوب الأعز ، والحبيب الأحب ، ونادى منادى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ووفدت عليه وفود التهانى من آفاق التعزز بذل العبودية هاتفة (واسجد واقترب) .

فصلوات الله وسلامه وبركاته ورحماته وتحنناته على سيد المرسلين وإمام العابدين المخلصين المخلصين ، خاتم النبيين سيد الوجود محمد الأحمد المحمود ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، وأزواجه ، وذريته الذين سكب فى أرواحهم من شراب شهوده قطرات من غيث فيض الجود ، فتجلت لهم رياض الوجود فى حقائق الشهود ، وسرت إليهم منه أشعة العرفان ، فعرفوا ، وتنزلت عليهم من سماء رسالته علوم الهداية ورسوم الولاية ، فعلموا من جلال الله وعظمة كبريائه ماأفاء بهم إلى أدب ، كان خصيصتهم فى شهودهم وأداه عنهم سيدهم الصديق الأكبر فقال (العجز عن درك الإدراك إدراك) .

Marfat.com

أولئك هم شموس الهداية الربانية ، وعقول العلوم الإلهية ، وتربية الأنوار المحمدية ، وخلاصة الجرثومة الإنسانية ، وورثة النبعة الإسلامية ودوحة الإشراق الروحانية ، لاينقطع مددهم عن العلماء ، ولا تحجب أنوارهم عن آفاق الأولياء ، من تأدب بآدابهم لحق بقافلتهم ، ومن تزيد أو تنقص تخطفته الذئاب إلى بنيات الطريق فتهوى به الريح فى مكان سحيق .

فرضى الله عنهم وعصمنا بعواصم متابعتهم عن الانزلاق فى مزالق الهوى والغرور ، ووفقنا إلى الأخذ بهدايتهم ، حتى لانضل الطريق ، وحتى نصل إلى منازل ذل العبودية على أقدام العجز والافتقار فى مقام (اللهم احينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين) .

ونسأل من خصهم بمطالعة نور أنوار الإنسانية أن يلحقنا بمن لحق بهم من المؤمنين تفضلا وإحساناً إنه أرحم الراحمين .

وبعد فهذه جمل وكلمات موجزة فى الحديث عن «التصوف فى الإسلام» وفى بيان منابعه الأصيلة من أصول الإسلام ، التى تنبع منها عيونه ، وتفيض من نميرها أنهاره ، وفى بيان أطواره التى تحدرت فى منازلها مراحل تاريخه .

والتصوف الذى نقصد إلى الحديث هنا عنه هو « التصوف فى الإسلام» ولهذا جعلناه عنواناً للبحث حتى لايتشعب بنا الحديث إلى شعاب يضل فيها الخريت الفطن من الأدلاء ، ويتيه فى أوديتها الماهر الحاذق من الخبراء .

وقد اختلف الناس قديما وحديثاً اختلافاً بعيد المدى ، واسع الصدى فى معنى « التصوف » ، وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين أنه درس خمسة وستين تعريفاً « للتصوف » فلم يجد معنى عاماً منها مشتركا بينها اشتراكا يجمع خصائصها ويوحد حقيقتها .

Marfat.com

والذى ينظر فى كتب « التصوف » ويطيل النظر يجد أنه أمام مئات من التعريفات « للتصرف » وكل تعريف منها ينحو إلى نحو خاص، وشاهد ذلك نجده قريباً بين أيدينا فى كتاب « الحلية » لأبى نعيم ، وهو كتاب مشهور من أجمع ما كتب فى « التصوف » رجالا ونعوتاً وأقوالا وحكما وتعريفات ، وحسب القارىء أن يعلم أن هـذا الإمام ترجم لأكثر من ثمانمئة شخصية صوفية من رجال ونساء ترجمة تختلف اختلافاً بيناً فى الإيجاز والإسهاب ، وهو يذكر فى كل ترجمة معنى أو أكثر من معنى للتصوف يختلف عما يذكره قبلا أو بعداً .

والذى نراه فى تأويل هـذا أن التصوف أحوال وأذواق ومقامات تتفاوت فيما بينها تفاوت أحوال ومقامات ومشارب أصحابها ، ويمكن أن يقال : إن كل سالك فى الطريق إلى الله تعالى له حال أو أحوال ، وله ذوق ومشرب ، بل أذواق ومشارب تتجدد معه بتجدد سيره وهمته فى السير ، وما يكشف له من معالم الطريق فى سيره ، فإذا أراد أن يعبر عن مشاهده وحاله عبر بما يمليه عليه حاله فى وقته ، فإذا جاوزه تغيرت المشاهد والمعـالم ، ولا بد أن يتغير التعبير ، ومن هنا يمكن فهم مايرى فى علوم القوم وكلماتهم من اختلاف فى التعبير .

وكما اختلف الناس فى معنى التصوف ، اختلفوا فى تحقيق هل «التصوف» علم من علوم الإسلام الأصيلة النابعة من الحقيقة الإسلامية المنزلة فى كتاب الله على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم والماثلة فى سنته المطهرة علماً وعملا باعتبارها وحياً من الله تعالى موجبا للإيمان بهذا الوحى على مراتبه فى درجات الطلب سلباً وإيجاباً .

أو هو علم من العلوم الطارئة فى تاريخ الإسلام ، نتيجة لتفاعل المزج بين عقائد الأمم التى استظلت بظل الإسلام ، وأخلاقها وأفكارها ، وسلوكها؟

Marfat.com

أو هو طريق من طرائق السلوك فى الحياة ، اختطها طائفة من الناس ، بعد أن نصبوا معالمها وأقاموا مناراتها من أصول الشريعة المطهرة ؟

يقول ابن خلدون : (وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية .

وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخارف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة والعبادة) .

والمتأمل فى عبارة ابن خلدون يخرج منها بأمور ، قد تساعد على تحديد المقصود من « التصوف فى الإسلام » تحديداً يقرب الفواصل بين « التصوف العملى » و « التصوف النظرى » .

الأمر الأول — أن عبارة ابن خلدون واضحة فى أن « التصوف » ليس علماً بالمعنى المعروف فى اصطلاح أهل الفنون الذين يعتبرون « العلم » فناً له قواعد ومبادىء تنتظم مسائل محددة ، تندرج كلها تحت حقيقة واحدة ، هى تعريف « الفن » تعريفاً يجمع مسائله ، ويمنع من دخول غيرها معها فى تعريفه ، وهذا هو مراد الاصطلاحيين فى قولهم أن التعريف يجب أن يكون جامعاً مانعاً .

فتعبير ابن خلدون عن « التصوف » بأنه « علم » تجوز فى العبارة وتساهل فى الأداء .

الأمر الثانى — أن صدر عبارة ابن خلدون صريح فى أن « التصوف » حادث فى الملة الإسلامية ، والذى يفهم من هذه العبارة أن ابن خلدون يتحدث عن « التصوف النظرى » الذى أصبح منذ أواخر القرن الثانى لونا

Marfat.com

من ألوان التفكير الإسلامى ، له نظرياته ، وله أهله القائمون على حقائقه؛ وله كتبه واصطلاحاته ، وله غايته وأهدافه .

الأمر الثالث — أن ابن خلدون ذكر فى صراحة أن أصل «التصوف» وهو طريق القوم ، هو طريق الحق والهداية ، وهـذا واضح فى أنه يعنى بذلك « التصوف العملى » الذى هو السلوك الخلقى ، والتطبيق الواقعى لروح الشريعة وآدابها ، وإن هذا كان موجوداً ومعروفا عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأنه كان عندهم هو طريق الحق والهداية .

الأمر الرابع — أن هذا « التصوف العملى » كان يتمثل فى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن الدنيا وزخارفها وزينتها .

وهذا يؤيد أن « التصوف فى الإسلام » بدأ سلوكا وعملا تطبيقيا لروح الشريعة ونصوصها ، وتخلقاً بآدابها فى الظاهر والباطن ، ولم تكن لهذا « التصوف» نظريات خاصة ، ولا كانت له تسمية خاصة تفرده عن التكيف بطاعه الله وإخلاص التعبد له عز شأنه ، وكان هذا السلوك عنواناً عاماً لأعمال الصحابه والتابعين ومن بعدهم فى القرنين الأولين ، إلى أن فشا فى الناس الإقبال على الدنيا ، وجنحوا إلى مخالطة أهلها اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

ونحن ننظر فى هذا البحث إلى « التصوف» على ضوء المعانى التى ذكرها ابن خلدون فى عبارته ، باعتبار هذه المعانى كانت من الحقائق الوجودية فى تاريخ الإسلام ، وجدت معه منذ وجد . بقطع النظر عن هذه التسمية الطارئة ، وهـذه المعانى هى الحقيقة التى كانت تضم مجموعة من العناصر « العملية » وكانت هى الصورة السلوكية فى التربية الإسلامية للأفراد والجماعات ممثلة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه وتلاميذهم من

Marfat.com

التابعين رضوان الله عليهم ، وهذه التربية هى مناط الخيرية المذكورة فى الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وهى التى عبر عنها علماء القلوب بالأخلاق الإسلامية ، لأنها كانت عملا من أعمال الناس فى حياتهم ، ولم يتحدث عنها كنظريات علمية ، لأن أولئك القوم كان يشغلهم العمل أكثر مما يشغلهم القول .

والعناصر « العملية » التى تألفت منها هذه الحقيقة التى سميت فيما بعد « تصوفا » كثيرة بتفريعاتها ، ولكنها تتدرج تحت أصول عامة نبه عليها القرآن الكريم فى آياته ، وتخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى المعنى المقصود فى حديث عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت للسائل : كان خلقه القرآن .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفيئون إلى ظل من الأنوار النبوية ، يتمثلونها فى حياتهم العملية ، ويطبقونها فى وجودهم أينما كانوا وكيفما حلوا ، يرقبون أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدخله ومخرجه ، فى بيته ومسجده ، فى حربه وسلمه ، فى يقظته ونومه ، فى تعبداته وأعماله ، فى عاداته وأخلاقه ، فى حركاته وسكناته ، فى مظهره ومخبره ، فى زيه وهيئته فى مشيه وقعوده ، فى حديثه وسكوته . فى غضبه لله ورضاه ، فى حزنه وسروره ، فى ضحكه وتبسمه ، فى أكله وشربه ، فى قوله وفعله ، فى عدله وهدايته ، فى جهاده وشجاعته ، فى رأفته ورحمته ، فى كل شأن من شئونه ليطبقوا حياته على حياتهم بقدر طاقتهم ، ولقد كان أحدهم يعمل العمل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمله ، فإذا سئل عن حكمة ذلك قال : لا أدرى إلا أنى رأيت رسول صلى الله عليه وسلم يصنع هذا فصنعته ، لأنهم كانوا يرون أنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل إلا ما هو محض خير ،

Marfat.com

روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما رؤى وهو يدير ناقته فى مكان مر به ، فسئل فى ذلك فقال لا أدرى إلا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله ففعلته .

وقد جرى التابعون على سنة الصحابة ، وساروا فى طريقهم ، يتتبعون آثارهم ، ويقتفون خطوهم فى حياتهم ، ويستمسكون بما يعلمون أنه كان من فعلهم وأخلاقهم ، لأنهم تتلمذوا عليهم ، وعنهم أخذوا العلم والعمل ، فكانوا فى أغلب حالهم صورة منهم ، حتى ذر قرن الفتن ، ودخل فى الإسلام من لم يكن يرجو لله وقارا ، ولا للإسلام عزة وانتصاراً . وأصبح المجتمع الإسلامى خليطاً من البشر بين مؤمن صادق الإيمان كظمته الفتن وانطوى على مستكنة من الأحزان على مصير أهل الإيمان ، وهؤلاء كانوا القلة الأصيلة التى عاشت مع التابعين كما عاش التابعون مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وبين مؤمن ضعيف الإيمان فى العمل والتحلى بأخلاق الإسلام وشرائع الإيمان ختلته الدنيا بخدعها فانحاز إليها وبين مسلم يدفع عن نفسه بإسلامه ، والله أعلم بما يبطن فى قلبه .

ومن ثم كان القرآن الكريم وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه ، وحياة تلاميذهم من التابعين هى منابع « التصوف فى الإسلام » باعتباره حقيقة عملية وجودية فى واقع حياة المسلمين فى الصدر الأول ، بغض النظر عن عنونة هذه الحقيقة وتسميتها بهذا الاسم المستحدث فى القرن الثانى كما يقول ابن خلدون .

وسنورد هنا النصوص من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وأحوال النبى صلى الله عليه وسلم وأحوال أصحابه فى حياتهم ، وأحوال أئمة التابعين لبيان ماقصدنا إليه من أن « التصوف فى الإسلام » باعتباره عملا سلوكياً

Marfat.com

وأخلاقياً ينبع من أصول الإسلام ، وليس كما يزعم المتقولون غريباً عنها ، مستحدثاً فى تاريخ الإسلام ، مستجلباً إليه من آفاق بعيدة عن الإسلام ، وإنما المستحدث منه هو هذه التسمية ، وما تبعها من أمور نظرية دخلت على حقيقة « التصوف » العملية ، فنقلتها إلى وضع نظرى فلسفى لم يعرفه السلف الصالح .

وسوف لانتقيد فى إيراد النصوص والحوادث بترتيب خاص ، وإنما نهتم بتثبيت المعانى العملية السلوكية التى نطلق عليها اسم « التصوف العملى » أو « الأخلاق الإسلامية » .

ويمكن أن نوجز الكلام ، ونحصر تفريعات « التصوف العملى » الذى يعرفه الإسلام فى أصوله ، وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحياة أصحابه وتلاميذهم من التابعين ومن بعدهم فى دائرة تتألف حلقاتها من أمور ثلاثة ، قد تكون هى مبادىء ونهايات التفريعات التى تجمع عناصر « التصوف فى الإسلام » .

الأول — الزهد فى الدنيا .

الثانى — مراقبة الله تعالى .

الثالث — عدم الغفلة عن ذكر الله عز شأنه .

ونحن حينما نتحدث عن هذه الأمور الثلاثة لانقصد إلى التفاصيل الجزئية التى تستوعب وتستقصى . لأن ذلك غير مستطاع فى هذا البحث وإنما نقصد .

أولا — إلى توجيه الطلاب إلى أن السمو الروحى ، والإشراق القلبى ، والتخلق بمعالى الأخلاق ، والتحلى بمكارمها ، استبطانا للفضائل — وهو

Marfat.com

ما يستهدفه « التصوف » المستقيم كان سمة سلفنا الصالح ، وعنوانهم الذين كانوا يعيشون به فى الحياة .

فالتصوف بهذا المعنى العملى حقيقة من حقائق الإسلام الأصيلة ، أو هو على التحقيق روح الإسلام وحقيقته الكبرى .

ثانياً — إلى تنبيه الباحثين فى « التصوف » إلى وجوب ربط بحوثهم بأصل هذا « الفن » فى الإسلام ، وإلى تفجير منابعه الإسلامية الأصيلة حتى يظهر للعقول السليمة ما يتجنى به بعض من يكتب فى هذا « الفن » من المسلمين وغيرهم ليجعلوا منه « فناً » أجنبياً عن الإسلام . لاغفالهم هذا الربط ، وتجريد النظر إلى « التصوف النظرى » المتفلسف ، حتى يباعدوا بين حياة المسلمين فى يومهم وبين حياة أسلافهم الذين كانوا يحيون بقلوبهم وعقولهم وأرواحهم حياة قوية مشرقة ، فتحت لهم مغاليق الحقائق الكونية ، وأظهرتهم على أسرار الوجود فسادوا بالعدل والرحمة ، والعمل الدائب لخير الإنسانية وخير الحياة كلها .

الزهد فى الدنيا :

أما الزهد فى الدنيا فلم يكن المقصود به كراهية الدنيا وعدم الالتفات إليها ، وإنما كان المقصود به عدم حب الدنيا ، وفرق كبير بين المنزلتين ، فالكراهية تدعو إلى التباعد والدفع والنفور والفرار ، وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام وعدم الالتفات والترقب وعدم التطلع .

فإذا أقبلت الدنيا عليهم لم يقبلوا عليها بقلوبهم ، ولكنهم كانوا يصرفونها بعقولهم وحسن تدبيرهم ، فإذا جاءها الحق يطلبها من أيديهم قالوا بها هكذا ، وهكذا ينفقونها راضية أنفسهم ، قريرة أعينهم ، وإذا

Marfat.com

تطلعت إليها المكارم كانوا بها أجود من الريح المرسلة ، لا يمسكون ، ولا يسرفون ، وإنما عدل وإحسان .

ذلك لأنهم رأوا القرآن الكريم يعرض لذكر الدنيا فيصفها بأنها لهو ولعب وأن الآخرة هى الحياة الحقيقية فيقول الله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ويقول عز اسمه : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فى آيات من هذا اللون وهذا التصوير كثيرة .

ورأو القرآن يقول لسيد الوجود خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ويقول له : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

ويقول له : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) .

Marfat.com

ويقول له (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد حرصه على تبليغ رسالة ربه ، ويبذل فى سبيل ذلك فوق طاقته لاستمالة قلوب الشاردين عن كنف الله ، ويتعرض لأشد ما يتصور أن يتعرض له بشر على ظهر الأرض من البلاء . رجاء أن يفوز بإيمان واحد منهم ، فيتلطف به ربه ، ويرحم بلاءه فى مرضاته ، فيقول له عاذرا ومسلياً (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) ويقول له (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) .

ولكن هذا التلطف يزيد من شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على القيام بأمر ربه ، فيجتمع إليه قوم من صناديد الكفر ، وغطارفة الوثنية المتغطرسة ، ويعرض عليهم دعوة ربه ، وفى حسبانه أنهم لو آمنوا لآمن بإيمانهم الكثير من أتباعهم وأشياعهم .

ولكنهم يأبون إلا أن يفرضوا لأنفسهم مزايا ترفعهم فوق مستوى الناس ، ويأبى الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا التعزز بأهل الإيمان ولو كانوا فقراء ، وينزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم درساً من الأدب القرآنى الأكرم فى قصة عبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنه ، تعليما لرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يتخفف من لهفة التطلع إلى إيمان أولئك الشاردين ، ويبقى على نفسه رحمة بها ، وحسبه فى البلاغ قياماً بحق الدعوة إلى الإيمان بالله رب العالمين أن يقبل على الذين يسعون إليه ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، لأن الإيمان لا حاجة به إلى أهل الدنيا من الطغاة الجبابرة الذين لا يستطعمون الإيمان ، ولا يتذوقون الاخلاص غرورا بدنياهم التى شغفوا بها حباً ، وتعبدوا لزخارفها وزينتها .

Marfat.com

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاشه وشدة عيشه ، وقد يلبث الأيام لا يذوق طعاماً ، يروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت بكسرة خبز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ » قالت عليها السلام : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام »

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يشد صلبه بالحجر من الجوع وكانت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تبكى بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها ، مايبكيك يا أم المؤمنين ؟ فتقول : ما أشبع فأشاء أن أبكى إلا بكيت ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : (والله ما أمسى فى آل محمد صاع من طعام) قال راوى الحديث : وإنها لتسعة أبيات ، والله ما قالها استقلالا لرزق الله ، ولكن أراد أن تأسى به أمته .

والحديث عن « زهد » النبى صلى الله عليه وسلم لا تستوعبه الرسائل ، ولا يحسبن امرؤ أن زهده صلى الله عليه وسلم كان عن غير غنى لو أراده ، وإنما كان زهده تقللا من الدنيا ، واعراضاً عن زهرتها ، وقد سيقت إليه بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها وغنائمها ، وقد توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله ، وكان يدعو ويقول « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى ، وقال

Marfat.com

لى صلى الله عليه وسلم : « إنى عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فاتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فاحمدك وأثنى عليك » .

وفى حديث حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسحا نثنيه له ثنيتين فينام عليه ، فثنيناه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : « ما فرشتموا لى الليلة ؟ » فذكرنا ذلك له ، فقال : « ردوه بحاله ، فإن وطاءته منعتنى الليلة صلاتى » .

وتقول عائشة رضى الله عنها : لم يمتلىء جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط ، ولم يبث شكوى إلى أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك ؟ فيقول : يا عائشة « مالى وللدنيا ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم فأجدنى استحي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم ، وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق بأخوانى وأخلائى » .

قالت عائشة رضى الله عنها ، فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفى صلى الله عليه وسلم .

وقد تأسى به صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم ، وجروا على سننه ، روى زيد بن أرقم أن أبا بكر رضى الله عنه استسقى ، فأتى بأناء فيه ماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى ، وأبكى من حوله فسكت وما سكتوا ، ثم عاد فبكى حتى ظنوا ألا يقدروا على مسألته ، ثم مسح

Marfat.com

وجهه وأفاق ، فقالوا : ماهاجك على هذا البكاء ؟ قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل يدفع عنه شيئاً ، ويقول : « إليك عنى ، إليك عنى ، ولم أر معه أحدا ، فقلت: يارسول الله،أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً ؟ قال : « هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها ، فقلت لها : إليك عنى ، فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى مَن بعدك » فخشيت أن تكون قد لحقتنى ، فذاك الذى أبكانى .

ولقد كانت الدنيا تكون فى أيديهم فلا تشغلهم عن الله تعالى ، فإذا نادى عليهم منادى البذل فى سبيل الله والإنفاق فى وجوه الخير بذلوها فرحين مستبشرين .

روى زيد بن أرقم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالا عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما ، قال : فجئت بنصف مالى ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك » ؟ قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك » ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسابقك إلى شىء أبداً .

وفى حديث عبد الرحمن بن عوف قال : دخلت على أبى بكر رضى الله عنه فى مرضه الذى توفى فيه ، فسلمت عليه ، فقال : رأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى جائية ، وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمون النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا .

Marfat.com

وقد نهج عمر رضى الله نهج أبى بكر رضى الله عنه فى شـــدة التعلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب التأسى به فى جميع أحواله ، ففى حديث حفصة أم المؤمنين أنه لمـا اتسع على الناس الرزق فى عهـده ، وكثر المال قالت له : يا أمير المؤمنين !! لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير ؟ فقال لها : إنى سأخاصمك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة العيش ؟ فمـا زال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لئن استطعت لأشاركنهما ـ يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ـ بمثل عيشهما الشديد ، لعلى أدرك معهما عيشهما الرخى .

وفى عمر يقول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : قد علمت بأى شىء فضلنا عمر ، كان أزهدنا فى الدنيا ، ويروى أن عمر رضى الله عنه لمـا قدم الشام صنع له طعام من أطيب الأطعمة ، فقال : هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ قال خالد بن الوليد : لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر بالدموع ، وقال : لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا يونا بعيداً .

وقال الأحنف بن قيس : أخرجنا عمر فى سَرية إلى العراق وبلاد فارس وخراسان ، فحملنا معنا واكتسينا ، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا ، فاشتد ذلك علينا ، فشكونا ذلك إلى ولده عبد الله ، فقال رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخليفة من بعده فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتينا فى البزة التى يعهدها منا ، فقام فسلم علينا رجلا رجلا واعتنقنا رجلا رجلا حتى كأنه لم يرنا .

Marfat.com

وكان عمر رضى الله عنه يخطب الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، ويقول على كرم الله وجهه : رأيت لعمر رضى الله عنه إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من جلد ، ورقعة من ثيابنا .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : والله ما شمل النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته ولا خارج بيته ثلاثة أثواب ، ولا شمل أبابكر فى بيته ثلاثة أثواب ، غير أنى كنت أرى كساهم إذا أحرموا كان لكل واحد منهم مئزر ومشتمل لعلها كلها بثمن درع أحدكم ، والله لقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه ، ورأيت أبابكر يخلل بالعباء ، ورأيت عمر يرقع جبته برقاع من أدم وهو أمير المؤمنين .

ويروى ابن الجوزى عن سنان الدؤلى قال : دخلت على عمر وعنده نفر من المهاجرين ، فأرسل عمر إلى سفط أتى به من قلعة من العراق ، وكان فيه خاتم فأخذه بعض بنيه فأدخله فى فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى ، فقال من عنده من المهاجرين: تبكى وقد فتح الله عليك وأظهرك على عدوك وأقر عينك ؟ فقال عمر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . لا تفتح الدنيا على أمة إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وأنا أشفق من ذلك .

والاسترسال فى الحديث عن زهد عمر رضى الله عنه لا تتسع له هذه العجالة ، ولكننا التقطنا من درر حياته ما يصور هذه الحياة التى ملأت الدنيا عملا وعلماً وفضلا .

أما ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد كان منذ تنفس تسائم الحياة ربيب نعمة ودنيا عريضة ، ولكنه منذ دخل الإسلام وهب له نفسه ودنياه ، فكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، يطعم الناس طعام

Marfat.com

الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت ، ولما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجهيز جيش العسرة قال عثمان رضى الله عنه : على مائة بعير باحلاسها واقتابها ، ثم حث النبي صلى الله عليه وسلم . فقال عثمان على مائة أخرى باحلاسها ، ثم حث النبي صلى الله عليه وسلم فقال عثمان رضى الله عنه : علىّ مائة أخرى باحلاسها واقتابها ، ثم جاء بألف دينار ونثرها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلب الدنانير وهو يقول : « ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم » .

وأما ربيب النبوة ، ورضيع الأنوار المحمدية زوج سيدة نساء الدنيا ، وأبو سيدى شباب أهل الجنة الإمام المعلم ، مفرج كربات المسلمين بسيفه ، وكاشف غمراتهم بعلمه أبو حسن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه وأرضاه . فقد كان فى الزهد نسيج وحده ، لو أراد القلم أن يصوره فى زهده لوجب أن ينقل سيرته كلها ممثلة فى سائر أحواله .

حدث كرم الله وجهه ورضى عنه بعض أصحابه عنه وعن زوجه البتول فاطمة بنت الرسول فقال : كانت أكرم أهله عليه ، وكانت زوجتى فجرت بالرحى حتى أثر الرحى بيدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها ، وقمت البيت حتى أغبرت ثيابها ، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها ، فأصابها من ذلك ضر ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى . فقلت لها : انطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسليه خادما يقيك ضر ما أنت فيه ، فذهبت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمست ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا بنية ؟ قالت : لا شىء جئت لاسلم عليك واستحييت أن تسأل شيئاً ، فلما رجعت قال لها على : ما صنعت ؟ قالت : لم أسأله شيئاً واستحييت منه ، ثم أمرها على أن ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعت ولم تسأله شيئاً ،

Marfat.com

فلما كانت الليلة الثالثة ذهب على وذهبت معه فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : ما أتى بكما ؟ فقال على : يا رسول الله ! شق علينا العمل فأردنا أن تعطينا خادما نتقى به العمل ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أدلكما على خير لكما من حمر النعم ؟ قال على : يا رسول الله ! نعم ،قال : تكبيرات وتسبيحات وتحميدات مائة حين تريدان أن تناما، فتبيتان على ألف حسنة ، ومثلها حين تصبحان فتقومان على ألف حسنة .

ومن حديث عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا على إن الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها ، هى زينة الأبرار عند الله عز وجل : الزهد فى الدنيا ، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ورهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعا ، ويرضون بك إماماً » .

وفى قصة ضرار الصدائى أحد خاصة أصحاب على رضى الله عنه فى مجلس معاوية رحمة الله أصدق تصوير لحياة الإمام الزاهدة ، قال الرواة : دخل ضرار بن ضمرة على معاوية رحمه الله فقال له : صف لى علياً ، فقال ضرار أو تعفينى يا أمير المؤمنين ، قال : لا اعفيك ، قال : إذ لا بد فإنه كان — والله — بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى

Marfat.com

الليل سدوله ، وغارت نجومه يقف فى محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى اسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا — يتضرع إليه — ثم يقول للدنيا إلى تغررت ؟ إلى تعرضت ؟ إلى تشوفت ؟ هيهات ، هيهات ، غرى غيرى ، لقد بتتك ثلاثاً ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قال : فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال معاوية : كذا كان أبو حسن رحمه الله ، كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذبح واحدها فى حجرها ، لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ضرار فخرج عن المجلس .

وإنما تحدثنا عن زهد أكرم رجال فى الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم خلفاؤه الأربعة قصداً إلى بيان أن الزهد ليس هو كراهية الدنيا وعدم رعايتها رعاية تجعلها فى خدمة الإيمان وأهله . لتكون لهم العزة فى هذه الأرض ، وإنما هو كما قلنا : عدم حب الدنيا حباً يشغف بها القلوب ، فوجود الدنيا بحذافيرها فى يد المؤمن دون أن يعلق بها قلبه فتشغله عن ربه هو فى الحقيقة أرفع درجات الزهد ، ويليه فى مراتبه زهد الرضا لغير واجدى الدنيا ، الصابرين الصادقين ، الذين لا يغيرهم الفقر ولا يبطرهم الغنى .

هؤلاء الراشدون فتحت عليهم الدنيا وملكوا خزائن الأرض ، فلم تملك منهم ذرة من أنفاسهم ولحظات حياتهم ، فكان زهدهم زهد القناعة الواجدة ، لا زهد الحرمان ، ولا زهد التصبر ، زهدهم لم يمنعهم أن

5351/5

Marfat.com

يحملوا راية الإسلام خفاقة حتى تضعها جيوشهم فى أقصى المعمور فى الأرض .

ولم يقصر غيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شوطهم فى الزهد ، فهذا طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من أوسع الناس ثراء وأكثرهم مالا ، يدخل على زوجه سعدى بنت عوف المرية وهو مغموم مهموم ، فتقول له : ما لى أراك كالح الوجه ؟ ما شأنك ؟ أرابك منى شىء فأعينك ؟ قال : لا ولنعم خليلة المرء المسلم أنت ، قلت : فما شأنك قال : المال الذى عندى قد كثر وكربنى ، قلت : وماعليك ؟ أفسمه ، فقسمه حتى مابقى منه درهم واحد ، قال راوى الحديث : فسألت خازن طلحة : كم كان المال ؟ قال : أربعمائة ألف .

وتقول زوجه سعدى أيضاً : لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف درهم ، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفى ثوبه ، ويقول الحسن : باع طلحة أرضاً له بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة فبات أرقا من مخافة ذلك المال حتى أصبح ففرقه .

وهذا حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته الزبير ابن العوام كان من أكثر الصحابة مالا وعتاداً كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ما يُدخل بيته من خراجهم درهما ، يقسمه كله ثم يقوم من ليلته وليس معه منه شىء .

وروى أنه لما كان يوم الجمل جعل الزبير يوصى بدينه ، ويقول : يا بنى إن عجزت عن شىء فاستعن عليه بمولاى ، قال ابنه : فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ فقال : الله ، قال : فوالله ما وقعت فى كربة من دينه إلا قلت : يامولى الزبير ! اقض دينه فيقضيه ، فقتل الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهما إلا أرضين ودوراً ، وإنما كان دينه الذى

Marfat.com

عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه ، فيقول الزبير : لا ، ولكنه سلف ، فإنى أخشى عليه الضيعة . فحسبت ما عليه فوجدته الفى ألف فقضيته .

وهذا سعد بن أبى وقاص أحد قواد الفتح الإسلامى وبطل القادسية وخال رسول الله صلى الله عليه وسلم خؤولة عالية ، يحدث عن نفسه فيقول: لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالنا طعام إلا ورق الشجر ، ويقول : كنا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدته ، فلما أصابنا البلاء مرنا عليه وصبرنا له ، ولقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خرجت من الليل أبول ، وإذا أنا أسمع بقعقعه شىء تحت بولى ، فإذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ، ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ثم استففتها وشربت عليها من الماء فقويت بها ثلاثاً . وسعد يروى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « لأنا فى فتنة السراء أخوف عليكم منى فى فتنة الضراء ، إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وإن الدنيا حلوة خضرة » .

وهذا عبد الرحمن بن عوف يتصدق بشطر ماله ، وكان من أثرى أثرياء عصره ، ثم يتصدق بأربعين ألف درهم ، ثم بأربعين ألف دينار ، وقد حمل فى سبيل الله على خمسمائة فرس ، وعلى ألف وخمسمائة راحلة .

هذا هو لون من الحديث عن زهد الأكابر الذين لم يكرهوا الدنيا ولم يحبوها ، ولكنها أقبلت إليهم فوضعوها فى أيديهم لتكون عوناً للإسلام والمسلمين وليس لهم منها إلا القوت بخلف الخبز والخل والزيت .

أما الحديث عن زهد الصابرين الراضين من أضراب سلمان ، وأبى ذر ، وأبى الدرداء ، وخباب ، وسائر أهل الصفة ، ممن يعدون بالمئات والألوف

Marfat.com

فهو الحديث عن الحياة العامة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يستثنى ، ولكننا نقص على القارىء قصة رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ندرى أنعدهما فى الزاهدين الأثرياء الذى أعطوا فأبوا ، وشكروا ؟ أم نعدهما فى الزاهدين الذين رضوا فصبروا وكافحوا الدنيا ، فلم يعرفوها ولم تعرفهم مع أنها جاءتهم بقرونها فردوها وتتعرضت لهم فرفضوها أعزة شاكرين صابرين .

هذا سعيد بن زيد الجمحى يوليه عمر بن الخطاب الشام خلفاً لمعاوية بن أبى سفيان ، فيخرج إلى عمله فلم يلبث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة فباع ذلك عمر فبعث إليه بألف دينار ، فدخل بها على امرأته ، فقال : إن عمر بعث إلينا بما ترين ، فقالت : لو اشتريت لنا أدماً وطعاما وادخرت سائرها ؟ فقال لها : أو لا أدلك على أفضل من ذلك ؟ نعطى هذا المال من يتجر لنا فيه ، فنأكل من ربحه وضمانها عليه ، قالت : فنعم إذاً ، فاشترى أدماً وطعاما ، واشترى بعيرين وغلامين يمتاران عليهما حوائجهم وفرقها فى المساكين وأهل الحاجة ، ولم يلبث إلا يسيراً حتى قالت له امرأته إنه قد نفد كذا وكذا ، فلو أتيت ذلك الرجل فأخذت لنا من الربح فاشتريت لنا مكانه ، فسكت عنها ، ثم عاودته فسكت عنها حتى آذته ، فقال بعض أهلها : ما تصنعين أنك قد آذيته ، وأنه قد تصدق بذلك المال ، فبكت أسفاً على ذلك المال ، ثم إن زوجها سعيداً دخل عليها يوماً فقال لها : على رسلك ، إنه كان لى أصحاب فارقونى منذ قريب ما أحسب أنى صددت عنهم وأن لى الدنيا وما فيها ، فسمحت ورضيت .

وقد شكا أهل حمص ـ وكانت تدعى الكوفة الصغرى لكثرة شكايتهم عمالهم ـ عاملهم سعيد بن زيد هذا فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال اللهم لا تقيل رأى فيه اليوم ، ثم سألهم : ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى

Marfat.com

النهار ، قال سعيد : والله إن كنت لأكره ذكره ، ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم ، فقال : ما تشكون منه ، قالوا : لايجيب أحداً بليل ، قال : ما تقول ؟ قال : إن كنت لأكره ذكره ، إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عزوجل ، قال : وما تشكون منه ؟ قالوا : إن له يوماً فى الشهر لا يخرج فيه إلينا ، قال : ما تقول ؟ قال : ليس لى خادم يغسل ثيابى ، ولا لى ثياب أبدلها ، فأجلس حتى تجف ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم من آخر النهار ، قال : وما تشكون منه ؟ قالوا يغنظ الغنظة بين الأيام ، قال ما تقول ؟ قال شهدت مصرع خبيب الأنصارى بمكة وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذعه ، فقالوا : أتحب أن محمدا مكانك وأنت فى أهلك ؟ فقال. والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى ومحمد صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة ، ثم نادى يا محمد ، فما ذكرت ذلك اليوم وتركى نصرته فى تلك الحال وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لى بذلك الذنب أبداً ، فتصيبنى تلك الغنظة .

فقال عمر : الحمد لله الذى لم يفيل فراستى فيه ، فبعث إليه بألف دينار وقال . استعن بها على أمرك ، فقالت امرأته ، الحمد لله الذى أغنانا عن خدمتك فقال لها. فهل لك فى خير من ذلك، فندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها ، قالت ! نعم ، فدعا رجلا من أهل بيته يثق به فصررها صرراً . وقال له : انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان ، والى يتيم آل فلان ، والى مسكين آل فلان ، والى مبتلى آل فلان ، فبقيت منها ذهيبة ، فقال لزوجته ! انفقى هذه ، ثم عاد إلى عمله .

* * *

Marfat.com

وهذا عمير بن سعد ولاه عمر بن الخطاب عاملا على حمص ـ أيضاً ـ فمكث حولا لا يأتيه خبره . فقال عمر لكاتبه : اكتب إلى عمير ـ فوالله ـ ما أراه إلا قد خانتا ـ إذا جاءك كتابى هذا فاقبل. وأقبل بما جبيت من فىء المسلمين حين تنظر فى كتابى هذا . فأخذ عمير جرابه فجعل فيه زاده وقصعته وعلق أدواته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشى من حمص حتى دخل المدينة . قال : فقدم وقد شحب لونه ، وأغبر وجهه ، وطالت شعرته . فدخل على عمر وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال عمر ما شأنك ؟ فقال عمير ما ترى من شأنى ألست ترانى صحيح البدن ، معى الدنيا أجرها بقرونها . قال وما معك ؟ ـ فظن عمر رضى الله عنه أنه قد جاء بمال ـ فقال : معى جرابى أجعل فيه زادى ، وقصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثيابى ؛ وأداوتى أحمل فيها وضوئى وشرابى ، وعنزتى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن اعترض . فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى . قال عمر . فجئت تمشى ؟ قال نعم ! قال : أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها ؟ قال : مافعلوا وما سألتهم ذلك. فقال عمر بئس المسلمون خرجت من عندهم . فقال له عمير اتق الله يا عمر ، قد نهاك الله عن الغيبة وقد رأيتهم يصلون صلاة الغداة . قال عمر فأين بعثتك ؟ وأى شىء صنعت . قال وما سؤالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر سبحان الله ، فقال عمير أما لولا أنى أخشى أن أغمك ما أخبرتك ، بعثتنى حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ،حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شىء لأتيتك به . قال فما جئتنا بشىء ؟ قال لا . قال جددوا لعمير عهداً . قال إن ذلك لشىء ، ؟ لاعملت لك ولا لأحد بعدك ! والله ما سلمت بل لم أسلم . لقد قلت لنصرانى أى أخذاك الله . فهذا ما عرضتنى له يا عمر ، وأن أشقى أيامى يوم خلقت معك يا عمر . فاستأذنه فأذن له فرجع إلى منزله . قال وبينه وبين المدينة أميال . فقال عمر حين انصرف

Marfat.com

عمير ، ما أراه إلا خاننا ، فبعث رجلا يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار، فقال : انطلق إلى عمير حتى تنول به كأنك ضيف فان رأيت أثر شيء فأقبل وإن رأيت حالة شديدة فادفع إليه هذه المائة الدينار . فانطلق الحارث فاذا هو بعمير جالس يُفلى قميصه إلى جانب الحائط فسلم عليه الرجل فقال له عمير : أنزل رحمك الله . فنزل ثم سأله فقال من أين جئت ؟ قال من المدينة. قال فكيف تركت أمير المؤمنين . قال صالحا . قال : فكيف تركت المسلمين ؟ قال : صالحين . قال : أليس يقيم الحدود ؟ قال : بلى، ضرب ابناً له أتى فاحشة فمات من ضربه . فقال عمير ، اللهم أعن عمر فإنى لا أعلمه إلا شديداً حبه لك . قال فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ويطوون ، حتى أتاهم الجهد . فقال له عمير . إنك قد أجعتنا ، فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل . قال . فأخرج الدنانير فدفعها إليه فقال : بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها . قال : فصاح وقال : لا حاجة لى فيها ردها. فقالت له امرأته : إن احتجت إليها وإلا فضعها مواضعها . فقال عمير . والله ما لى شيء أجعلها فيه . فشقت امرأته أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ، ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء . ثم رجع والرسول يظن أنه يعطيه منها شيئاً . فقال له عمير : اقرأ منى أمير المؤمنين السلام . فرجع الحارث إلى عمر فقال ما رأيت ؟ قال رأيت يا أمير المؤمنين حالا شديداً . قال فما صنع بالدنانير ، قال لا أدرى . قال فكتب إليه عمر إذا جاءك كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تُقبل . فأقبل إلى عمر رضى الله تعالى عنه فدخل عليه، فقال له عمر ما صنعت بالدنانير ؟ قال قدمتها لنفسى قال رحمك الله فأمر له بوسق من طعام وثوبين . فقال أما الطعام فلا حاجة لى فيه قد تركت فى المنزل صاعين من شعير إلى أن آكل ذلك قد جاء الله تعالى بالرزق ، ولم يأخذ الطعام . وأما الثوبان فقال إن أم فلان عارية فأخذهما ورجع إلى منزله فلم يلبث أن هلك رحمه الله ، فبلغ عمر ذلك فشق عليه وترحم

Marfat.com

عليه ، فخرج يمشى ومعه المشاؤن إلى بقيع الغرقد ، فقال لأصحابه ليتمن كل رجل منكم أمنية . فقال رجل . وددت يا أمير المؤمنين أن عندى مالا فأعتق لوجه الله عزوجل كذا وكذا . وقال آخر . وددت يا أمير المؤمنين أن لى مالا فانفقه فى سبيل الله . وقال آخر . وددت لو أن لى قوة فامتح بدلو زمزم لحجاج بيت الله . فقال عمر . وددت أن لى رجلا مثل عمير ابن سعد أستعين به فى أعمال المسلمين .

* * *

هكذا كان زهد الصحابة رضوان الله عليهم فى دنيا الناس ، فهو — كما رأينا — عند الخاصة من الأكابر زهد القادرين الواجدين ، الذين ظلفوا أنفسهم عن الدنيا ، وهى بين أيديهم ، وطوع إشارتهم وهو زهد العاملين الشاكرين الذين كانوا يعملون تعبداً وشكراً ، ورجاء وخشية .

وهو عند إخوانهم زهد المجاهدين الصابرين ، وزهد العاملين الراضين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وهكذا كانت سيرتهم الطاهرة ، وحياتهم الطيبة المباركة ، رشحت عليها أنوار النبوة فأشرقت أرض قلوبهم بضياء العبودية ، فكانوا سر اختصاص الإضافة فى نداء الشهود فى قوله عز وجل : (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فاياى فاعبدون) .

ولم يكن زهد الصحابة تعطيلا للمواهب الإنسانية التى هى أجل نعم الله على عباده ، ولا كان زهدهم استكانة للفقر ، أو استسلاما للعجز ، أو قناعة بغير عمل ، وهم رضوان الله عليهم صفوة الصفوة ، أعرف الخلق بربهم بعد النبيين ، أقام الله بهم معالم اليقين ، وشيد بأعمالهم مناثر الدين ، ونشر بجهادهم الدعوة إلى الحق والعدل والرحمة .

Marfat.com

وهل « التصوف فى الإسلام » إلا صفاء البين بالأعراض من الغير ، فلا يرى العبد إلا المعبود بوصفه الحق ، ويبقى للعبد نعته بالعبودية ببقاء وصف المعبودية المعبود ، فلا سكر للكملة ولا فناء ، ولكنه صحو دائم ، وبقاء لا يبيد ، إذا نطقوا فالشرع أنطقهم ، وإذا عملوا فالقرآن الحكيم علمهم ، وإذا سلكوا فحياة النبي صلى الله عليه وسلم صراطهم ومهيعهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

فهم فى أعمال الدنيا ناس مع الناس كأكمل ما تكون حقيقة الإنسانية عملا وجداً ، يجعلون بعقد ضمائرهم ونياتهم من هذه الأعمال التى يراها الناس عملا لمحض الدنيا عبادة يتقربون بها إلى الله ، وهم بقلوبهم وأرواحهم فى مقعد الصدق قائمون على قدم التعبد لله رب العالمين .

وقد نهج التابعون لهم بإحسان من تلاميذهم الذين أخذوا عنهم العلم والعمل والخلق والسلوك نهجهم فكانوا صورة مصغرة منهم ، وكان بعضهم يقول لبعض تلاميذه : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره ذلك ،

أخذ التابعون عن الصحابة الزهد فى الدنيا والإعراض عنها فيما أخذوا عنهم من طرائق السلوك فى حياتهم ، فكان زهدهم زهد جهاد وكفاح ، لأنهم عاشوا فى جو تراكمت فيه سحائب الفتن فى آفاق المجتمع الإسلامى ، وكانت الدنيا فى أيدى أقوام يشترون بها الضمائر ، وكانوا يجعلونها وسيلة لإفساد النفوس ، وكان القابض على دينه كالقابض على الجمر .

بيد أن وجود بعض الصحابة معهم فى عصرهم كان ملطفاً من قبضة الفتن على قلوبهم ، فكانت لهم منادح فى تفادى التعرض الصريح ، وساعدهم على ذلك لجؤهم إلى شىء من العزلة والابتعاد عن مواطن الانحياز ، فحفظ

Marfat.com

ذلك عليهم دينهم وباعد بينهم وبين الدنيا اختياراً تارة واضطرارا تارة أخرى .

ولو تتبعنا المُثل والصور فى أشخاص التابعين كما تتبعنا بعضها فى الصحابة لانتشر الأمر على البحث ولفات ضبطه وتحديده ، ولهذا فإننا نكتفى فى ذلك بمثال واحد ، يجمع كثيراً من الشواهد فى ضروب الحياة الزاهدة التى كان يحياها التابعون رحمهم الله تعالى .

ذكر أبو عبد الله القرطبي فى تفسيره حديث أبى حازم مع سليمان بن عبد الملك فقال : روى الدارمى أبو محمد فى مسنده عن الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياماً ، فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت منى ؟

قال سليمان : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى !

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ماعرفتنى قبل هذا اليوم ، ولا أنا رأيتك فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهرى فقال . أصاب الشيخ وأخطأت .

قال سليمان : يا أبا حازم ! مالنا نكره الموت ؟

قال أبو حازم . لأنكم أخربتم الآخرة ، وعمرتم الدنيا ، فكرهتم أن أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟

Marfat.com

قال أبو حازم . أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان . وقال . ليت شعرى ! ! ما لنا عند الله ؟

قال أبو حازم . إعرض عملك على كتاب الله .

قال سليمان . وأى مكان أجده ؟

قال أبو حازم . « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » .

قال سليمان . فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟

قال أبو حازم . رحمة الله قريب من المحسنين .

قال سليمان . يا أبا حازم ! فأى عباد الله أكرم ؟

قال أبو حازم . أولوا المروءة والنهى .

قال سليمان . فأى الأعمال أفضل ؟

قال أبو حازم . دعاء المحسن إليه للمحسن .

قال سليمان . فأى الصدقة أفضل ؟

قال أبو حازم . للسائل البائس وجهد المقل ، ليس فيها من ولا أذى .

قال سليمان . فأى القول أعدل ؟

قال أبو حازم . قول الحق عند من تخافه أو ترجوه .

قال سليمان . فأى المؤمنين أكيس ؟

قال أبو حازم . رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان . فأى المؤمنين أحمق ؟

قال أبو حازم . رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .

Marfat.com

قال سليمان : أصبت ياأبا حازم ، فما تقول فيما نحن فيه ؟

قال أبو حازم : أو تعفينى ؟

قال سليمان : لا ، ولـكن نصيحة تلقيها إلىّ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ماقالوه ، وما قيل لهم ؟!

فقال له رجل من جلسائه : بئس ماقلت ياأبا حازم !؟

قال أبو حازم : كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للنـاس ولا يكتمونه .

قال سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟

قال أبو حازم : تَدَعون الصلف ، وتَمسّكون بالمروءة ، وتقسمون بالسوية .

قال سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟

قال أبو حازم : تأخذه من حله ، وتضعه فى أهله .

قال سليمان : هل لك ياأبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟

قال أبو حازم : أعوذ بالله .

قال سليمان : ولم ذاك ؟

قال أبو حازم : أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات .

قال سليمان : ياأبا حازم ارفع إلينا حوائجك .

Marfat.com

قال أبو حازم : تنجيني من النار وتدخلني الجنة ! ؟

قال سليمان : ليس ذاك إليّ

قال أبو حازم : فما لي إليك حاجة غيرها .

قال سليمان : فادع لي . ؟

قال أبوحازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة. وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ماتحب وترضى .

قال سليمان : قط ..؟

قال أبوحازم : قد أوجزت وأكثرت ، إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمى عن قوس لاوتر لها .

قال سليمان : أوصني . . .؟

قال أبو حازم : سأوصيك وأوجز . عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ..؟

فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمائة دينار ، وكتب إليه. أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير . فردها عليه أبو حازم ، وكتب إليه .

يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلا ، أو ردي عليك بذلا ، وما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسي .

إن موسى بن عمران عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان ، فسألهما فقالتا . «لانسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير» فسقا لهما، ثم تولى إلى الظل فقال. « رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لايأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس ، فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان ، فلما رجعتا إلى أبيهما

Marfat.com

أخبرتاه بالقصة وبقوله فقال أبوهما . ـ وهو شعيب عليه السلام ـ هذا رجل جائع ، فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه ، فلما أتته عظمته وغطت وجهها ، وقالت . إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فشق على موسى حين ذكرت أجر ماسقيت لنا ، ولم يجد بداً من أن يتبعها ، لأنه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً ، . . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ ، فقال له شعيب . إجلس ياشاب فتعش ، فقال له موسى . أعوذ بالله ؟

فقال له شعيب : لم ؟ أما أنت جائع ؟

قال موسى : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً .

فقال شعيب : لا ياشاب ، ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف ، ونطعم الطعام .

فجلس موسى فأكل .

ثم قال أبو حازم فى كتابه إلى سليمان . فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثت ، فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هذه .

وإن كان لحق فى بيت المال ، فلى فيه نظراء ، فإن ساويت بيننا وإلا فليس لى فيها حاجة .

قال أبو عبد الله القرطبى معلقاً على هذه القصة . هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء .

أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل ، والحبر العالم ، كيف لم يأخذ على عمله عوضاً ، ولا على وصيته بدلا ، ولا على نصيحته صفدا ، بل بين الحق وصدع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع .

Marfat.com

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا يمنعن أحدكم هيبة أحدأن يقول الحق أو يقوم به حيث كان » .

وفى التنزيل « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »

* * *

ونحن نقول تأسيا بأئمتنا من أعلام الهداية والسلوك .إن الإمام القرطبي نظر إلى هذه القصة من زاوية كريمة شريفة لينبه إلى مايجب أن يكون عليه أئمة الهدى من أعلام الإسلام إذا دفعتهم الأحداث إلى مجالس الولاة ومن بيدهم أمر سلطان هذه الأمة من الجهر بالحق فى أدب العلم والدعوة إلى الله تعالى وعز التقى ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول . أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر .

ولكن هذه القصة لها زوايا تربوية كثيرة ، لو حاولنا استيعاب النظر فيها لاقتضت منا رسالة خاصة ، بيد أننا سقناها قصداً إلى مايتصل منها بموضوع « الزهد » الذى هو الدعامة الأولى من دعائم « التصوف فى الإسلام » ، وهى تمثله أصدق تمثيل وتصوره أروع تصوير يبين مقدار التأسى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومقدار الحرص على متابعته صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه الكريمة .

وقد يكون من زواياها التى تتصل بالتصوف فى الإسلام بأوثق عراه أنها تصور سلوك أئمة الهدى فى حياتهم ، وأنهم لايتهافتون على مجالس السلطان ، ولايتزاحمون على أبوابه ، بل إنهم لايعرفون السلطان ولايعرفهم السلطان حتى يدل عليهم ، لأنهم يعرفون أن مجالس أولئك تحيا بالنفاق والمداهنة فى الحق وبيع الدين بالدنيا ، وليس للجهر بالحق عندهم ثمن أقل من بذل الأرواح إلا من عصم الله .

Marfat.com

لكنهم إذا دعوا أجابوا ، وإذا أريدوا على دينهم بذلوا أرواحهم جهاداً فى سبيله ، وإذا استنصحوا نصحوا لله ولرسوله وعامة المؤمنين وأئمتهم .

وهذا هو « التصوف » الهادى المهتدى النابع من منابع الهداية الربانية ، وقف به أصحابه فى منازل العبودية ، لا يتطلعون إلى شىء من دنيا الناس ، ولا يطلبون لأنفسهم شيئاً مما يطلب الناس .

ولأبى حازم إخوة أشباه فى هذا السمو بمقام العلم من التابعين كما كان للصحابة فى أخلاقهم وسلوكهم إخوة أمثال فى التسامى بمقام الصحبة المشرفة على كل مقام .

ولولا خشية الإطالة والخروج عن حدود المطلوب « هنا » لتركنا لرسن القلم المجال ، ولكننا نكتفى بالمثل والشاهد نموذجاً مصوراً لأمثاله بصورة نفسه ، فإذا ذكرنا أبا حازم ، فقد ذكرنا أبا سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى ، وذكرنا سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ، وذكرنا شهيد الطغيان الحجاجى سعيد بن جبير ، وذكرنا ثابت البنانى ، وأبا مسلم الخولانى ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، ومطرف بن عبد الله المزنى ، ومورقا العجلى ، وصلة بن أشيم ، وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصيهم العد ، ولا يحصرهم القيد .

وكذلك من جرى فى شوطهم من أتباع التابعين وتلاميذهم من أمثال حبيب العجمى ، وأبى بكر الشبلى وبشر بن الحارث الحافى ، ومعروف الكرخى ، والمحاسبى ونظرائهم ممن كان « التصوف » عندهم عملا وتعبداً ، ومن تكلم منهم فإنما يتكلم بفتح فى كتاب الله وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يجاوزهما حتى نجم من اتسع وتوسع ، وتحدث وأحدث من العلم فى

Marfat.com

« التصوف » نظريات نقلته إلى « تصوف » نظرى ، له فلسفته وأصوله وقواعده واصطلاحاته ، واختلفت الأنظار ، وكثرت النقول والأقوال ، والخواطر والكلمات ، وبقى من حفظه الله على السمت الأطيب ، تحقيقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى وعد الله » .

Marfat.com

مراقبة الله تعالى

أما الدعامة الثانيه من دعائم « التصوف فى الإسلام » فهى « مراقبة الله تعالى » وهى كدعامة « الزهد » تنبع من القرآن الكريم والسنة المطهرة وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى واقع سيرته الكريمة ، وحياة أصحابه فى تطبيقهم السلوكى لما شاهدوه من حياته صلى الله عليه وسلم وعلموه من القرآن الكريم ، وحياة تلاميذهم من التابعين .

وسبيلنا فى هذا هو سبيلنا فى « الزهد » نسوق النصوص والحوادث ، ونصور النماذج فى وقائعها البارزة حتى تتبين لنا معالم الطريق فى فهم «التصوف فى الإسلام» ونتبين أن هذا « التصوف » هو فى حقيقته العملية التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم بإحسان روح الإسلام وخلاصة آدابه السامية التى تمثلت عملا فى أخلاق المسلمين الأولين .

نزل القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هادياً مرشداً ، ومؤدباً مهذباً ، ومشرعاً معلماً ، وله فى ذلك كله طرائقه الخاصة التى توقظ العقول وتنبه القلوب ، وتحرك الضمائر حتى تقع هدايته وإرشاده مواقعها من أغوار النفس الإنسانية ، ويقع أدبه وتهذيبه من القلوب موقع الرضا والقبول ، ويقع تشريعه وتعليمه من العقول موقع الحكمة المرغبة فى الامتثال — وهو فى إطار الهداية العامة والخاصة — آمرناه ، موعد واعد ، مرغب مرهب ، داع محذر يقصد إلى التحبيب فى الخير ، والتنفير من الشر ، توجيهاً للحياة وجهة الإصلاح .

ونراه ربط الأمر بالوعد ، والنهى بالوعيد بياناً لمنزلتى الثواب والعقاب، اللذين جعلهما الله فى طبائع الناس حوافز للاستجابة ، وحواجز دون

Marfat.com

الاقتحام ، والنفوس الإنسانية واقعة بين شراهة الغرائز ومنطق العقل وإشراق الروح (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ولا بد لها لكى تستجيب إلى منطق العقل وتتغلب على شراهة الغرائز وترقى إلى أفق الإشراق الروحى من قوة قاهرة تزعجها حتى لا تستكين وتستسلم لدواعى الغرائز وقد جعل الله لها هذه القوة القاهرة فى داخل ذاتها ، تلك هى قوة الضمير ، وهذا الضمير هو مهبط الإلهام ، فإذا استيقظ هذا الضمير فى داخل النفس الإنسانية استشعرت مراقبة الله ، واستحضرت عظمته وعلمه المحيط ، وتمثلت قدرته وقهره ، وأنه المالك لنواصى العباد الرقيب عليهم المحصى لأعمالهم ، الذى لايخفى عليه خافية (ويعلم مافى أنفسكم فاحذروه) (قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد)إذا استشعرت النفس الإنسانية ذلك ، واستحضر العاملون فى الحياة عظمة الله ، واطلاعه على علانيتهم وسريرتهم وأنهم موقوفون بين يديه ، مسئولون عن أعمالهم ، محاسبون على ماقدموا من آثار فى حياتهم مجزيون على الخير خيراً وثواباً ، وعلى الشر نكالا وعقاباً إذا استحضرت ذلك كانت فى عملها مراقبة لله تعالى ، تحذر بطشه وعقابه وترجو رضاه وثوابه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

واستحضار عظمة الله تعالى ومراقبته عند أى عمل يقوم به الإنسان هو الإحسان الذى بينه النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل فقال

Marfat.com

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والعبادة فى الإسلام كل عمل يأتى به المؤمن على وجه الإخلاص والمراقبة لله تعالى (إنما الأعمال بالنيات) سواء أكان ذلك العمل من أعمال الدنيا وإصلاح الحياة ، أوكان من عمل الآخرة وتهذيب النفس وتطهير القلب وتصفية الروح ، وهذا معنى قول الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين إلا لله الدين الخالص) والآية عامة تتناول جميع التكاليف التى أنزل بها الكتاب من الأوامر والنواهى ، فمن راقب الله وألزم قلبه فى جميع أعماله أن الله تعالى يراه فى سره وعلانيته استحيا من جلال الله أن يراه ربه على ما لا يحبه منه ، فيستنير قلبه ويسكنه الخوف من بطش الله ، ويدوم عليه الحذر من سخطه ، وغضبه ، مشفقاً على نفسه معظما لأمر الله ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، لا يرعى فى عمله إلا جلال الله وعظمته حتى يصغر فى عينه كل مخلوق دون الله تعالى .

روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه مر فى إحدى سفراته بغلام يرعى غنما ، فقال له تبيع من هذه الغنم واحدة ، فقال الغلام : إنها ليست لى ، فقال ابن عمر ـ يمتحن أمانته : قل لصاحبها : إن الذئب أخذ منها واحدة !؟ فقال الغلام : فأين الله ؟ فكان ابن عمر زمناً طويلا يردد على نفسه قول الغلام : فأين الله ؟

ومراقبة الله فى السر والعلن منزلة من منازل المخلصين الأوابين ، وفيها يقول بعضهم : من راقب الله فى خواطره عصمه الله فى جوارحه .

وآيات المراقبة لجلال الله تعالى باستحضار علمه المحيط بسرائر خلقه ، واستحضار خشيته جاءت فى القرآن الكريم بأساليب متنوعة وأفانين مختلفة لتجذب النفوس إلى مسالكها ، ونحن نورد منها ما يأتى :

(١) يقول الله تعالى (ان الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء

Marfat.com

هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم) .

(٢) ويقول الله عز شأنه (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير)

(٣) ويقول تبارك وتعالى (قل إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

(٤) ويقول جل جلاله (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) .

(٥) ويقول عز وجهه (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) .

(٦) ويقول عز شأنه فى وصف حال أهل مراقبته (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) ومعنى ذلك فى حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذى يزنى ويسرق ويشرب؟فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (لا ، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه) .

(٧) ويقول ربنا عز جانبه (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) .

(٨) ويقول تعالى (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

Marfat.com

(٩) ويقول جل شأنه (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

(١٠) ويقول تبارك وتعالى (فالهكم إله واحد فله اسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) .

(١١) ويقول تعالى (وليعلم الذين أوتو العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) .

(١٢) ويقول سبحانه (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) .

(١٣) ويقول عز وجهه (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) .

(١٤) ويقول تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

هذه آيات من القرآن الكريم سقناها كنماذج لرعاية مقام المراقبة ، وهو مقام له شأنه العظيم عند أكابر الصوفية ، وهو ركن من أركان التصوف فى الإسلام ، نادى به القرآن وأكثر من التنبيه عليه وجعله أساس الإيمان الصحيح ومدخل الإخلاص إلى قلوب العابدين .

وهو من أوسع المقامات ، يبدأ بالتوبة العامة من عامة المخالفات الشرعية وهذه توبة العامة ، أما توبة الخاصة فهى التبرؤ من الاغيار والمعوقات عن سير النفس إلى منازل التبتل والانقطاع عن الخلق .

Marfat.com

وهناك توبة خاصة الخاصة . وهى عدم الالتفات الى ماكان وما يكون تعبداً وخشية ، وهذا مايرمز اليه الحديث الصحيح فى قوله صلى الله عليه وسلم (إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة) وهذا استغفار شكر ومراقبة لجلال الله وعظمته . لأنه صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه وأخشاهم له ، وقد روى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع شيئاً ترخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى اللهعليه وسلم فحمد الله ثم قال . مابال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه . لو تعلمون ماأعلم اضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله . وفى حديث عبد الله بن الشخير أنه قال ، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

وهذه جملة من الأحاديث تدل على كثير من المعانى التى أشرنا إليها فى عناصر « التصوف العملى » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ان الله عز وجل قال . من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل من أداء ماافترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذ أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فلئن سألنى عبدى أعطيته ، ولئن استعاذنى أعذته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض عبدى المؤمن يكره الموت وإكره إساءته ـ أو مساءته) .

Marfat.com

وهذا الحديث الصحيح من أقوى مايتمسك به القوم فى دعم طريقهم إلى الله بالسنة المطهرة .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من عباد الله لأناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل) فقال رجل . مَن هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم ؟ قال . (قوم يتحابون بروح الله عز وجل ، من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها بينهم ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) .

وعن عمرو بن الجموح رضى الله عنه قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . (قال الله عز وجل ، إن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال. (إن لله عز وجل ضنائن من عباده يغذيهم فى رحمته ، ويحييهم فى عافيته ، إذا توفاهم توفاهم إلى جنته . أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية) .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال . مر عمر بمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنهما وهو يبكى ، فقال . مايبكيك يامعاذ ؟ فقال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا شهدوا لم يعرفوا ، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم) .

Marfat.com

عن قيس بن أبى حازم قال . سمعت سعد بن أبى وقاص يقول . والله إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ، ولقد كنا نغزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى قرحت أشداقنا ، وحتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط .

وعن حذيفة بن اليمان قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ياحذيفة إن فى كل طائفة من أمتى قوماً شعثاً غبراً إياى يريدون ، وإياى يتبعون ، وكتاب الله يقيمون . أولئك منى وأنا منهم وإن لم يرونى » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من سأل عنى أو سمره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة أو قصبة على قصبة . رفع له علم فشمر إليه ، اليوم المضمار وغدا السباق والغاية الجنة أو النار » .

وأخرج الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظر ماتقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : كأنى انظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا حارث عرفت فالزم . عرفت فالزم . عرفت فالزم .

وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : مؤمن نور الله قلبه . ومن طريق عبد الرزاق ، زاد فيه أن حارثة قال للنبى صلى الله عليه وسلم :

Marfat.com

ادع الله لى بالشهادة ، فدعا له ، فأغير على سرح المدينة فخرج حارثة ، فقاتل فقتل .

وأخرج الفريابى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا : كيف يشرح صدره ؟ قال : (نور يقذف به فيه فينشرح له وينفسح) قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) .

وعن على كرم الله وجهه أنه صلى الغداة ، ثم لبث فى مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة ، فسأله بعض أصحابه عن حاله تلك؟ فقال : لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أرى أحداً يشبههم ، والله إن كانوا ليصبحوا شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل ركب المعزى ، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة فى يوم ريح ، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

وفى حديث البراء بن مالك يقول النبى صلى الله عليه وسلم . « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس » وفى رواية « مدفوع عن الأبواب » وفى أخرى « لا يؤبه له لو اقسم على الله لأبره ، منهم البراء ابن مالك » .

وفى حديث إبراهيم بن أدهم عن عباد بن كثير بن قيس قال . جاء رجل عليه بردة له ، فقعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل عليه أطمار فقعد ، فقام الغنى بثيابه يضمها إليه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (أكل هذا تقذراً من أخيك المسلم ؟ أكنت تحسب أن يصيبه من

Marfat.com

غناك شيء أو يصيبك من فقره شيء ؟ فقال) الغنى : معذرة إلى الله وإلى رسوله من نفس أمارة بالسوء وشيطان يكيدنى ، أشهدك يا رسول الله أن نصف مالى له ، فقال الرجل الفقير : ما أريد ذاك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لم ذاك ؟ قال . أخاف أن يفسد قلبى كما أفسده .

ومقام المراقبة مفتاح لجميع المقامات الصوفية ، يندرج تحته مقامات الصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والإخلاص ، والحياء ، والرضا ، والتسليم ، والبذل ، والشفقة على الخلق ، وغيرها .

وللصحابة رضوان عليهم فى مقام المراقبة منازل خصوا بها تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالصديق كان من شدة مراقبته لله يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى ، وكان كثيراً ما يرى آخذاً بلسانه يجذبه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد .

ويروى عنه أنه كان له مملوك يغل عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ، ولم تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال . مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى ، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى ، قال : إن كدت أن تهلكنى ، فادخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل له . يرحمك الله !! كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ ! قال . لو لم تخرج إلا مع نفسى لاخرجتها ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » فخشيت أن ينبت شيء من جسدى من هذه اللقمة .

ومن حديث عائشة رضى الله عنها قالت . لبست مرة درعا لى جديداً ، فجعلت أنظر إليه وأعجبت به ، فقال أبو بكر . ما تنظرين ؟ إن الله ليس

Marfat.com

بناظر إليك ! قلت . ومم ذاك ؟ قال . أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ، قالت . فنزعته فتصدقت به ، فقال أبو بكر . عسى ذلك أن يكفر عنك .

* * *

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد التعلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب التأسى به فى سائر أحواله ، روى أنه لما اتسع على الناس الرزق فى عهده ، وكثر المال قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها . يا أمير المؤمنين . لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك ؟ ! فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير ، فقال لها : إنى سأخاصمك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قسوة العيش ، فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لئن استطعت لاشاركنهما ـ يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ـ بمثل عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرخى .

وكان رضى الله عنه إذا نزل بالناس هم يكاد يهلك من الحزن اهتماماً بأمرهم ، فيخلع ثيابه ، ويلبس ثوباً قصيراً ، لا يكاد يبلغ ركبتيه ، ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تذرفان حتى يغشى عليه

ومما يروى عنه فى شدة مراقبته لله تعالى أنه دخل السوق ذات يوم فرأى رجلا يقال له سلمة قاعداً فى السوق ، فقال له : هكذا يا سلمة عن الطريق فغفقه بالدرة غفقة لم تصب منه إلا طرف ثوبه ، فتحول سلمة عن الطريق ، وسكت عنه عمر حتى إذا كان العام المقبل لقيه فى السوق فقال له . يا سلمة ! أردت الحج العام ؟ قال سلمة : نعم ، فأخذ بيده حتى أدخله معه بيته ، فأخرج له كيساً به ستمائة درهم ، فقال له : يا سلمة

Marfat.com

خذها واستعن بها على حجك ، وأعلم أنها من الخفقة التى خفقتك عاماً أول ، قال سلمة : يا أمير المؤمنين والله ما ذكرتها حتى ذكرتنيها ، فقال عمر وأنا والله ما نسيتها .

ويروى أن علياً كرم الله وجهه ـ وكان معه الحسن والحسين ـ لقى عمر فى بعض طرق المدينة فسلم عليه وأخذ بيده ، والحسن والحسين يكتنفاهما عن يمينها وشمالها فبكى عمر ، فقال له على رضى الله عنه : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : ومن أحق بالبكاء منى وقد وليت أمر هذه الأمة أحكم فيها ولا أدرى أمسىء أنا أم محسن ؟ فقال له على : والله إنك لتعدل فى كذا ، وتعدل فى كذا ، يُعدد له محاسنه فى سياسته للرعية ، فما منعه ذلك من البكاء ، ثم تكلم الحسن ، فذكر من ولاية عمر وعدله فلم يمنعه ذلك من البكاء ، فتكلم الحسين بمثل كلام الحسن ، فانقطع بكاء عمر عند كلام الحسين ، ثم قال لهما : أتشهدان بذلك يا ابنى أخى ، فسكتا فنظرا إلى أبيهما فقال على : اشهدا وأنا معكما شهيد .

وكان عمر رضى الله عنه يمر على الناس متستراً ليتعرف أخبار رعيته ، فمر بعجوز فى خبائها فسلم عليها وقال لها : ما فعل عمر ؟ قالت : لاجزاه الله عنى خيراً !! قال لها : ولم ؟ قالت : لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم ، فقال لها : وما يُدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع ؟ قالت : سبحان الله !! والله ما ظننت أن أحداً يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها ، فبكى عمر وقال : واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر !! ثم قال لها : يا أمة الله ! بكم تبيعينى ظلامتك من عمر ؟ فإنى أرحمه من النار ! فقالت : لاتهزأ بنا يرحمك الله ، فقال لها : لست بهزاء ، فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً ، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود

Marfat.com

رضى الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين : فوضعت يدها على رأسها وقالت : واسوأتاه ؟ شتمت أمير المؤمنين فى وجهه ، فقال لها عمر : لا بأس عليك رحمك الله ، ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً ، فما تدعى عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء » .

شهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود ، ثم رفع الكتاب إلى ولده وقال : إذا أنا مت فاجعله فى كفنى ألق به ربى .

ذكر الله تعالى

أما ذكر الله تعالى فهو الثمرة المباشرة لمقام « المراقبة » وهو أفضل العبادات ، وأشرف الطاعات ، وأعلا درجات الحسنات ، وهو مطية السائرين إلى منازل الشهود ، والطالبين لنفحات الجود ، وقد جاءت بذلك آيات القرآن المبين ، وأحاديث الرسول الأمين ، ومثلته حياته المباركة وحياة أصحابه والتابعين وخواص المؤمنين أكمل تمثيل .

يقول الله تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) ولأرباب القلوب من عباد الله المقربين عبارات فى الكشف عن ذكر الله لعبده ، وذكر العبد لربه ، تختلف فى ألفاظها وتتوحد فى غاياتها ، وذلك كقول بعضهم : اذكرونى بطاعتى ، اذكركم بإحسانى وثوابى .

ويقول آخرون : اذكرونى بالمجاهدة أذكركم بالهداية .

Marfat.com

وتقول طائفة : اذكرونى بالدعاء والضراعة اذكركم بالإحسان والإجابة .

ومن أحسن ما قيل فى ذلك قول أحد النجباء : أذكرونى بالصدق والإخلاص أذكركم بمزيد الإختصاص .

وفى هذه الآية الكريمة لطيفة ذوقية ، وهى أن الله تعالى رتب فيها ذكره لعباده على ذكرهم له ، وهذا يفيد أن المراد ذكر خاص ، لامطلق ذكر وإلا فالله تعالى ذاكر عباده وإن لم يذكروه ، ونعمه عليهم سابغة ، تحيط كافرهم ، وتغمر مؤمنهم .

ولهذا لما ذكر الله مقام المحبة ـ وهو مقام اختصاص ـ فى قوله تعالى . (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه) قدم محبته لأهل القرب من عباده على محبتهم له ، وجعل محبته لهم وسيلة إلى محبتهم له ، فبها جذبهم إلى رحاب شهوده ، فتولهوا بحبه ، فالذكر يقع من العامة والخاصة ولا يكون ذكر الله الخاص لعباده إلا بذكر الخاصة من عباده ، أما المحبة فهى من مبدئها مقام الخاصة لا تكون إلا لهم ، وهى لباب الفضل وخلاصة الرضا ، فكان هو جل شأنه المبتدأ بها ليستخلص بها أهل وده من مزاحمات الأغيار ، وهو عز وجل غيور لا يرضى أن يكون فى قلوب أحبابه غيره ، وهو الولى الحميد .

ويقول تبارك وتعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفشحاء والمنكر ولذكر الله أكبر) .

ويقول جل شأنه : (وأقم الصلاة لذكرى) .

ويقول عز وجهه : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) .

ويقول عز اسمه . (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

Marfat.com

ويروى الترمذى فى جامعه عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال . « ألا أنبؤكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا . بلى يارسول الله ، قال . « ذكر الله تعالى » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم . أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال . « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » قلت . يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال . « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه » .

قال أرباب القلوب من أهل الأخلاص والصفاء . ذكر الله تعالى يجرى على مراتب ثلاث .

المرتبة الأولى :

ذكره تعالى بالقلب والتفكر فى دلائل وجوده ، وبراهين وحدانيته وآيات جلاله وعظمته بما نصبه فى الكون من شهود حكمته فى خلقه وبديع صُنعه ، ومحكم تدبيره ، وعظيم فضله ، وواسع جوده وغامر إحسانه .

وهذه المرتبة من ذكر الله بالقلب والفكر هى المذكورة فى قوله تعالى . (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلت : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

Marfat.com

وفى قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

وفى هذه المرتبة من مراتب الذكر يقول النبى صلى الله عليه وسلم (لاعبادة كالتفكر) ويقول صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) .

وهذه المرتبة فى الذكر مقام المنقطعين إلى الله من أصفياء عباده الذين اتخذوا من التفكر فى آيات الله ، وما نصبه من الدلائل فى خلقه مطايا لشهود عظمة الله فى بديع الأسرار الكونية ، وجعلوا من القيام بواجب العبودية والتزام مراسم الشريعة ظاهرا وباطنا أساسا لتبوئهم منازل القرب وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم (بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء ، وقال : أشهد أن لك ربا وخالقا ، اللهم اغفر لى ، فنظر الله إليه فغفر له) .

ويحكى أن الإمام الربانى سفيان الثورى ، وهو من أساطين أئمة الإسلام رضى الله عنه ـ صلى خلف مقام ابراهيم ركعتين ، ثم رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان رضى الله عنه يبول الدم من طول حزنه وفكرته .

وروى ابن القاسم رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه أنه قال : قيل لأم الدرداء : ما كان أكثر شأن أبى الدرداء ؟ قالت : كان أكثر شأنه التفكر .

ويروى أن أبا سليمان الدارانى رضى الله عنه قام من الليل ، فلما أخذ قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل ـ وعنده ضيف ـ فرآه لما أدخل إصبعه فى أذن القدح أقام لذلك متفكراً حتى طلع الفجر ، فقال له ضيفه : ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : إنى لما طرحت أصبعى فى أذن القدح تفكرت فى قوله

Marfat.com

تعالى (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون) وتفكرت فى حالى : وكيف أتلقى الغل إن طرح فى عنقى يوم القيامة ، فما زلت فى ذلك حتى أصبحت .

وذكر الإمام ابن عطية فى تفسيره أن أباه حدثه عن بعض علماء المشرق ، فقال : كنت بائتاً فى مسجد الأقدام بمصر ـ هو مسجد كان فى مصر القديمة ـ فصليت العتمة ، فرأيت رجلا قد اضطجع فى كساء له مسجى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة ، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس ، فاستعظمت جراءته فى الصلاة بغير وضوء ، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه ، فلما دنوت منه سمعته ينشد شعراً :

مسجى الجسم غائب حاضر منتبه القلب صامت ذاكر
منقبض فى الغيـــوب منبسط كذاك من كان عارفا ذاكر
يبيت فى ليـــله أخا فِكَر فهو مدى الليل نائم ساهـــر

قال : فعلمت أنه ممن يتعبد بالتفكر فانصرفت عنه .

المرتبة الثانية :

هذه المرتبة من مراتب الذكر تتمثل فى الذكر باللسان مع يقظة القلب وفهم ما يردده اللسان ، وهذه المرتبة تجمع بين عمل الجوارح وعمل القلب ، وهى مرتبة العلماء الذين تفقهوا فى الدين ، وأقاموا منار الشريعة على دعائم اليقين ، فعملوا بما علموا ، وقاموا لله على قدم المجاهدة ، فعلمهم الله وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أى اتقوه بمجاهدة أنفسكم فى أداء ماطلب منكم مما علمتموه من الأمر والنهى ، فإذا قمتم بذلك فتح الله لكم أبوابا من العلم لم تكونوا تحصلون عليها بمجرد التعلم والنظر .

Marfat.com

وهؤلاء العلماء أصحاب هذه المرتبة هم الأدلاء على الله ، وهم حجة الله على خلقه يهدى بهم من يشاء ، لأنهم يأخذون معالم الهداية عن الله من شريعته ووحيه إلى أمينه الرسول الكريم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وهم الذين خصوا بالخطاب فى قول الله تعالى (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) فقد طلب منهم أن يذكروه بالمجاهدة والإخلاص ليذكرهم بمزيد القرب والاختصاص ، وذكر الشكر بعد الذكر دليل على أن الذكر هنا معناه العمل بالجوارح ، واللسان مقدمها وعنوانها ، ولذلك عقبه بالتحذير من كفران نعمته .

وفى معنى هذه الآية من جهة إرادة المعنى الجامع بين ذكر الجوارح وذكر القلب قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا).

ويدل لهذا المعنى فى هذه المرتبة قول النبى صلى الله عليه وسلم (من أطاع الله فقد ذكره) وفى الحديث الصحيح من رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل (أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة) وهذه العبارات تمثيل لرضاء الله تعالى على عباده الذاكرين له ، وأن هذا الرضا يتنزل فى مراتب متفاوتة على حسب تفاوت طرائق المجاهدة التى يقوم بها الذاكرون مقرونة بالإخلاص .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى عليه السلام قال : (يارب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ قال الله تعالى (ياموسى أنا جليس من ذكرنى) .

Marfat.com

وفى حديث أنس بن مالك من رواية الترمذى قال النبى صلى الله عليه وسلم (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا وما رياض الجنة ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم (حلق الذكر) .

وروى البخارى ومسلم رحمهما الله تعالى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا ، فيسألهم ربهم -وهو أعلم بهم- مايقول عبادى ؟ قالوا . يسبحونك، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك ، فيقول الله . هل رأونى ؟ فيقولون. لا والله ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا ، فيقول الله عز وجل : فماذا يسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها فيقول : فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها كانوا أشد حرصا عليها ، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ،فيقول : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها ، فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة ، فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول الله : هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم) . وفى حديث مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)

ومن رواية مسلم أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (سبق المفردون، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)

وعن أبى سعيد الخدرى من رواية مسلم فى الصحيح أنه قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ،

Marfat.com

قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل عنه حديثاً منى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنَّ به علينا ، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل ، فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة) .

وروى الترمذى أن رجلا قال : يا رسول الله ؟ إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأخبرنى بشىء أتشبث به ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يزال لسانك رطباً بذكر الله .

وقد تقدم حديث أبى الدرداء من رواية الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ألا أنبؤكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله؟ قال : ذكر الله تعالى) .

وهذا الحديث فيه تفضيل للذكر على الجهاد والجهاد أفضل الطاعات ، وكذلك سائر الأحاديث المتقدمة تجعل للذكر درجة رفيعة جداً ، وقد يدور فى خلد بعض الناس أن يستبعد ذلك ويقول : كيف تكون للذكر هذه الدرجة العظيمة وهو من أيسر العبادات وأقلها مشقة ؟

وقد عرض لهذه الشبهة الإمام الغزالى رحمه الله فقال : فإن قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟

Marfat.com

فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة ، والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى ، وفى الاخبار ما يدل عليه ، وحضور القلب فى لحظة بالذكر ، والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات ، بل به تشرق سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية .

وللذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجبه الأنس والحب ، ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب ، فإن المريد فى بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل ، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور .

ولا ينبغى أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد فى العادات أن تذكر غائباً غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه ، وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ، ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومن أكثر من ذكر شيء وإن كان تكلفاً أحبه .

فلذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له ، ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجباً والثمر مثمراً ، وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً . اهـ. كلام الغزالى .

Marfat.com

هذه النصوص المتقدمة تدل بظواهرها على أن ذكر الله تعالى باللسان مع حضور القلب ، وفهم معنى الأسماء الحسنى التى يذكر بها الله سبحانه وتعالى من أرفع درجات الطاعات وأفضل مراتب العبادات ، و من هذه النصوص أخذ السادة الصوفية العمل فى أذكارهم وأورادهم التى رتبوها للمريدين والسالكين ، وقد قيل لبعضهم : إننا لنذكر الله تعالى ولا نجد حلاوة لذكرنا ، فقال : احمدوا الله على أن زين جارحة من جوارحكم بذكر اسمه تعالى .

كما أن هذه النصوص تدل لمشروعية حلق الذكر وفضل مجالس الذكر ، غير أنه يجب أن يعلم أن هذا الذكر الذى يترتب عليه صفاء القلب وإشراق الروح بأنوار التجليات الإلهية إنما هو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى الواردة فى القرآن والسنة ، مع الأدب الكامل واستحضار عظمة الله تعالى وإخلاص التوجه إليه ،

المرتبة الثالثة :

هذه المرتبة هى مرتبة عامة المؤمنين ، وهى أن يذكر المؤمن الله تعالى بلسانه . وقلبه غافل لاهٍ مشغول بشواغل الدنيا ، ولكن هذه الغفلة القلبية غفلة طارئة ، وليست متأصلة فى قلب المؤمن ، بل هى عارضة بعروض دواعيها الدنيوية ، فإذا نبه المؤمن بالمواعظ والزواجر ، والترغيب فى ثواب الله ، والترهيب من عقابه تنبه وتذكر ، وقد يثمر هذا التنبه الندم والبكاء ويقظة القلب ، وأصحاب هذه المرتبة يلحقون بفضل الله بمرتبة الذاكرين لله ولكنهم لا يساوونهم فى الفضل إلا أن يشاء الله .

المرتبة الرابعة :

هذه المرتبة لا تدخل فى مراتب الذكر لله تعالى إلا من قبيل اللفظ والتسمية ، وإزالة شبهة ذكرها فى القرآن الكريم مقرونة بوصف أصحابها،

Marfat.com

وتلك هى ذكر الله تعالى باللسان ذكراً قليلا تستجلبه داعية الخداع والرياء والكذب مع غفلة القلب غفلة متأصلة ، لا تمحوها الزواجر ، ولا تزيلها الرغائب ، وهى مرتبة المنافقين الذين إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ،

وهذه المرتبة وإن كانت فى أصل ورودها فى القرآن الكريم واقعة على أهل النفاق العقدى ، فأنه يخشى أن تلحق برشاشها أهل النفاق العملى ، الذين تلهيهم الدنيا فلا يفيقون منها إلا فُواقا فى الحين بعد الحين ، ثم يعودون لما كانوا فيه ، فإذا دعوا إلى الله لم يستجيبوا إلا متثاقلين ، وليمتحن كل مؤمن إيمانه ليعلم من نفسه أين هو ؟ والله تعالى يقول : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) .

وأفضل هذه المراتب هى مرتبة الجمع بين ذكر الله باللسان مع الحضور القلبى التام كما تدل عليه كثرة النصوص التى أوردناها وغيرها .

وحسبك ما ورد فى خصوص أذكار معينة من عظيم الثواب ورفيع الدرجات كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يات أحد بأفضل مما جاء به إلا أحداً عمل أكثر من ذلك) .

وكقوله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله) .

Marfat.com

وفى الحـديث الذى ختم به البخارى جامعه الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) وعن أبى هريرة رضى الله عنه من رواية مسلم والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لأن أقول : سبحان الله ، والحمـد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس) .

وفى حديث سعد بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : (يسبح الله مائة تسبيحة ، فيكتب الله له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة) .

أطوار التصوف فى الإسلام

أكثر الناس قديماً وحديثاً الحديث عن «التصوف» وحاول الباحثون من القدامى والمحدثين أن يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ فى أوضاع اللغة — ومقاييسها الإصطلاحية . فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها القياسية ، وتفريعاتها الاشتقاقيه بأصل يمكن الاعتماد عليه فى صحة نسب هذا اللفظ إلى أبوابها .

وفى ذلك يقول الإمام أبو القاسم القشيرى فى رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفى» ، وللجماعة (صوفية) ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له «متصوف» وللجماعة «متصوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والا ظهر فيه أنه كاللقب .

فأما قول من قال : إنه من «الصوف» ، وتصوف إذا لبس الصوف .

Marfat.com

كما يقول : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى .

ومن قال : أنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

وقول من قال : أنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق اه.

ونحن نميل إلى أنه لقب منقول تعريباً من لغة غير عربية ، فهو حادث مع حدوث الألفاظ الدخيلة التى وفدت على العربية مع الأفكار والمعانى والمذاهب والآراء فى القرن الثانى من الهجرة ، لم يعرف معرفة لقبية لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك فى تاريخ الإسلام ، وقد يكون عرض له شىء من التصرف اللسانى لصقله تخفيفاً كما عرض لكثير من الألفاظ الوافدة .

ويقول الإمام أبو القاسم القشيرى: إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية « تعلم » سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة ولما أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم ممن له عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع

Marfat.com

وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم « التصوف » واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة . انتهى كلام القشيرى .

ونحن لا نستبعد أن يكون للأحداث السياسية ـ التى بدأت أحداثها فى العصر الأول من خلافة الراشدين وطمت دواهيها بعد ذلك ولم تطفأ نيرانها ، وكذلك الأحداث الاجتماعية التى حولت المجتمع الإسلامى عن وجهته الأولى فى الجرى مع طبيعة الدعوة الاسلامية على منهاج الفطرة ـ الانسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية ـ أثر كبير فى تلقيب الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينة من المسلمين بهذه التسمية « التصوف » .

وقد كانت السمة الغالبة على هذه الطائفة التى تميزت بها على غيرها من الطوائف فى عنوانها الظاهر هى « الحزن » لشعورها بظلم فادح ، واضطهاد جارح ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت فى رغائب الدنيا وزخارفها ، وسائر مظاهرها واعتزلت الحياة واستوحشت من محافلها وأنست إلى محاريب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فراراً إلى الله تعالى بدينها عن دنيا الناس .

وإذا صح هذا ـ وهو عندنا صحيح ـ كانت بقية السلف من آل البيت النبوى وأنصارهم ومحبيهم من ذوى الألباب الراسخين فى العلم والأدب الشرعى من أهل الصفاء والاخلاص والطهر والتقى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد العباد ، وتبعهم فى سمتهم من كان صفوه إلى طريقتهم فى الزهد والعبادة ، ثم انشعبت هذه الطليعة إلى شعب متعددة ، وافترقت فرقا مختلفة ، اتسمت كل فرقة منها بسمة نزعت بها إلى وصف خاص مميز ، به تسمت وبلقبه عرفت ،

Marfat.com

يعمها كلها التقشف والزهادة فى ترف الدنيا ، وبقى اسم «التصوف» لخيرهم طائفة ، وأمثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على عمود الاسلام ، متمسكين بظواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الأكبر الاخلاص فى العبودية وحب آل البيت حباً لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى . وكانوا بذلك هم خلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا فى تاريخ الاسلام بأهل السنة .

وقد كان أوائل الفرق الاسلامية قبل التشعبات المتكثرة بإغراء السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدة ، ففى المعتزلة الأوائل عمرو بن عبيد . يصفه إمام الزهاد الناسك ابن السماك فيقول «كان عمرو بن عبيد إذا رأيته مقبلا توهمته جاء من دفن والديه ، وإذا رأيته جالساً توهمته جلس للقود ، وإذا رأيته متكلماً توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا الإله » .

وسئل عنه الحسن البصرى — كما يقول ابن خلكان — فقال للسائل: لقد سألت عن رجل كان الملائكة أدبته ، وكان الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ولا باطناً أشبه بظاهر منه .

وكان عمرو بن عبيد صديقاً لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى قبل أن يلى الخلافة فلما وليها طلب إليه أن يعينه بأصحابه ، فقال له عمرو : ارفع علم الحق يتبعك أهله . وكان المنصور ينظر إليه وهو خارج من عنده ، وقد عرض عليه الدنيا فرفضها فيقول :

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

Marfat.com

وكان من زهاد الخوارج أبو حمزة الشارى ، وهو نسيج وحده فى الزهد والتعبد وقهر النفس. ومن كلامه فى وصف أصحابه ما يرويه ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، فيقول : خطب أبو حمزة الشارى بمكة فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية ثم قال : يا أهل مكة تعيرونى بأصحابى ، تزعمون أنهم شباب وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباب ، نعم الشباب مكتهلون ، عمية عن الشر أعينهم بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم فى آناء الليل مثنية أصلابهم بمثانى القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، أنضاء عبادة ، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام الخ ...

فلما غمرت السياسة المجتمع الاسلامى وساقته بعصاها انزلقت الفرق إلى مزالق الدنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة بصفة عامة ، سوى عباد أهل السنة وشيعة آل البيت المعتدلين ، وسوى الخوارج ممن فارق الطليعة فى بعض الأصول أو الفروع .

فأما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من الطليعة وإن كانوا طليعتها زهداً وتعبداً وتجافياً عن الدنيا ، لأنهم جهلوا سنة الله فى شرائعه ، ففروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتعالياً بالزهد والتعبد ، وقد أنبأنا بخبرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث رائدهم . وقائد ضلالتهم ذى الثدية الذى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غروراً بتعمق التعبد كأنما يتاجر الله مديناً بعبادته ، فيدل بها ادلال الجفاة المغرورين بالله . المارقين من الدين من باب « خضراء الدمن » مروق السهم من الرمية . وهم لا يشعرون .

Marfat.com

أما المعتزلة فيما بعد أوائلهم من تلاميذ الحسن البصرى فقد عانقوا السياسة وخاضوا غمرات الدنيا وتبوؤا فى القصور المترفة مكانة أبعدتهم عن الزهد والورع واستعبدتهم لمنطق العقل الجاف المعقد ، فكانوا فى الإسلام كما عرفهم التاريخ .

ولما توافدت مواكب الأمم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة فى وثنيات الماضى السحيق على ساحة الإسلام بعد ذيوع الدعوة الإسلامية لتدخل فيه طائعة راغبة ، أو كارهة كائدة وجدت هذه المواكب الدخيلة نفسها بين المجتمع الاسلامى فى لجة من البشر تموج بأجناس الإنسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهى تتدافع وتتزاحم وتتواثب ، يسوقها ـ أحياناً ـ ميراث العقائد المترسب فى خنايا مشاعرها ، وتسوقها ـ فى أحيان أخرى ـ السياسة الظالمة إلى مطامعها متسترة بجلباب الدين .

وإذا بالضعفاء أهل المسكنة والسكون إلى الله يدفعون بالمناكب إلى الوراء لا يستطيعون دفاعاً ولا مواكبة وينظرون حولهم فاذا بأخوة لهم عاكفون على أحلاس الأحزان ، يرمضهم حال الأمة وهى تهوى مع السياسة المترفة ومع ميراث الأباطيل فى العقائد الوثنية ، فلا يملكون إلا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيراً ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بما هو دون الكفاف . وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لأنفسهم فاستراحوا وأراحوا . لأنهم وزنوا الدنيا التى فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فرأوها كظل شجرة لا يزال يتنقل ثم يمحى ، فعرفوا أن طالب الدنيا فاقدها ، فأعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بحقيقتها الذى يراها مع أهلها كصيدة الفرْان المزودة بطعم شهى ، إن أدركت الدنيا أحداً منهم أو أدركها أحد منهم أعرض عنها ، فإن تعلقت به أخذها فقال بها هكذا وهكذا فى سبيل الخير ، يسعد بها المحرومين ، ويرحم بها المساكين ، وإن لم تدركه ولا هو أدركها فى سيره إلى الله ثم يبخع نفسه تأسفاً على فواتها ، بل لا يمد إليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها .

Marfat.com

أولئك هم الصالحون أهل الصفاء والاخلاص والتقى . أنسوا بالله فأفاض عليهم من بحار لطفه واردات الاشراق ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعرفة فكانوا شهوداً لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا الناس والأشياء غائبون .

يقول أبو سعيد الخراز فى كتابه « الصدق » : الزاهد فى الدنيا حقاً لايذم الدنيا ولا يمدحها ، ولايفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت . ويقول النورى : نعت الصوفى السكون عند العدم والإيثار عند الوجود .

أما الذين تزهدوا عجزاً عن التزاحم على الدنيا ، وتعبدوا يأساً من نيلها فأولئك الذين بخستهم الدنيا لأنهم وزنوها بميزان عجزهم ، فقنعوا بزهادة اليأس ، وتعبد العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلابها فأراحوا ولم يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق فى أديم السراب ، لا تستقر ولا تنحسر ، تخلط عليهم النور بالظلام كعبث مردة ـ الشياطين فى أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم من شىء إن كان معهم من الأشياء شىء ولا يزالون يسبحون فى بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الأباطيل ، وتقذف بهم فى أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخرى اتحاديون ، وثالثة اباحيون ، يعبدون ماينحتون بأصابع الأضاليل ، ويدعون مايتمثلون بأخيلة الممرورين ، وينطقون بما يخيلون من شطحات المبرسمين .

والزهد الصادق فى الدنيا بعزوف القلب عنها مع القيام بحق شرائع الله تعالى مخلصاً له الدين هو الميزان الصادق فى شرعة الإسلام لوزن « التصوف العملى » الصادق ، بل هو كل ما كان معروفاً فى صدر الاسلام من عمل زوى تحت ما سمى فيما بعد (تصوفاً) صادقاً ، وهو ما كان يعرف بالأخلاق الإسلامية أو بالمعرفة لأن العارف بالله لايشغله عن الله شىء لا طلب الدنيا ولا ـ الهرب منها ، يقول يوسف بن على فى رواية السلمى [1] : لا يكون

(١) الرسالة القشيرية .

Marfat.com

العارف عارفاً حقاً حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين .

ويقول أبو عمر الأنطاكى سمعت رجلا يقول للجنيد : من أهل المعرفة أقوام يقولون : أن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : أن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيم ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة (١) .

والأصل فى ذلك حديث حارثة . وهو مروى من طريق حسن قال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟

قال : مؤمناً حقاً يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (وما حقيقة إيمانك ؟) .

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأظمأت نهارى وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (مؤمن حقاً نور الله قلبه ، عرفت فالزم) .

ويقول أبو سعيد الخراز فى كتاب « الصدق » : وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، وكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ذم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها داراً لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم

---

(١) الرسالة القشيرية .

Marfat.com

راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته كرماً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ويروى أبو سعيد فى معنى حديث حارثة عن عمر بن عبد العزيز أنه نظر إلى شاب مصفر الوجه ، فقال : ما هذا الصفار يا غلام ؟ قال : اسقام وأمراض ! قال عمر : لتخبرنى !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون . وأهل النار فى النار يتعاوَوْن .

فقال له عمر بن عبد العزيز : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتق الله يُفرغ عليك العلم إفراغاً .

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه فى كتابه اشكالا يورده أهل البطالة والركون إلى الدنيا والاستغراق فى حبها وجمعها ، وأجاب أحسن أجاب عنه وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الأنبياء عليهم السلام الأموال والضياع . والصالحون من بعدهم ؟ ؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .

اعلم أن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله عنهم أمناء الله تعالى فى أرضه على سره ، وعلى أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقتهم . . فوافقوه فى محبته . . ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء القابلين عن الله والحافظين لوصيته . . . فسمعوا الله تعالى يقول : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) . . . وقال : (لله ما فى

Marfat.com

السموات وما فى الأرض) فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ماخولهم وملكهم فإنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى . . .

فن ملك من أهل العلم عن الله تعالى وأهل الصدق شيئاً من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله عز وجل لا له ، إلا من طريق حق ما خوله الله تعالى وهو مُبتلى به حتى يقوم بالحق فيه . . .

فالقوم كانوا خارجين من ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده أن فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة فى إخراجه . . . وهذا النبى صلى الله عليه وسلم يأتيه ملك من السماء لم ينزل قط قبل ذلك فيقول له : هذه مفاتيح خزائن الأرض تسير معك ذهباً وفضة . . فلم يختر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال أجوع مرة وأشبع مرة .

وهذا أبو بكر — حين حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة — جاء بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد ، ثم جاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ماخلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ، ولله عندى مزيد اه ملخصا .

قلت : فانظر إلى قول الصديق الأكبر وهو فى مقام الجمع بين الفناء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسبة لصدق رجائه فى الله تعالى الممثل فى قوله رضى الله عنه : (ولى عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غنى بما عند الله ، ثم انظر إلى قول الفاروق وهو فى مقام الصدق مع الله : (ولله عندى مزيد) والفرق بين الشيخين هو فرق ما بين المقامين فى الكلمتين .

Marfat.com

ثم قال أبو سعيد : ثم عثمان يجهز جيش العُسْرة كله بجميع ما يحتاج إليه ويحفر بئر رومه .

أفلا ترى أن القوم إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟؟ . . . وهـذا أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها لم يرفع بها رأساً . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها كان طعامه الخبز والزيت ، وكان فى ثوبه بضع عشرة رقعة بعضها من ادم وقد فتحت عليـه كنوز كسرى وقيصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كأنه واحد من عبيده فى اللباس والزى ، ولقد روى عنـه أنه رؤى خارجاً من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسى هل تأبى ؟

وهـذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الخلافة قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول فتقـدم إلى خراز فأخذ السكين فقطع الكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة .

وهذا الزبير رضى الله عنه يخلف حين مات من الدين مائتى ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهـذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حلى أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم (أنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه) .

* * *

هـذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الأولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصدر الأول

Marfat.com

ومتعبديهم من العزوف عن الدنيا ، والصدق مع الله فى معرفة جلال كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعبد له فى سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم الإخلاص ، والذى صورنا به زهادة اليائسين وتعبد العاجزين عن المنافسة على الدنيا وتسلط شياطين الأهواء على عقولهم وافئدتهم حتى أخرجتهم إلى وثنيات مظلمة زعموها فتوحات مشرقة هو — فى نظرنا — واقع ما يصح أن يطلق عليه اسم «التصوف» فى تاريخ الإسلام لأن اللون الأول منه وهو لون الزهادة الصادقة والتعبد الخالص ، واليقين المصفى من حظوظ النفس هو الذى يعرفه دين الإسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثانى وهو لون الزهادة اليائسة والتعبد القاتم فهو اللون الوافد من خارج الإسلام مع العقائد الوثنية التى حملتها طوائف الزاحفين إلى ساحة الإسلام بقلوب مليئة بالأباطيل . وهذا كله لا تعرفه طبيعة الإسلام ، ولا تقره ولا ترضاه مهما تأول المتأولون .

فالتصوف فى الإســـلام — على غرابة هذا اللفظ عن الإسلام واللغة العربية — كان عملا محضاً ، يقوم على إخلاص التعبد لله تعالى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيا عندهم دين ، لأنهم يأتون ما يأتون منها وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، لا يسارعون إلا إلى الخيرات وهم لها سابقون .

ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم ، يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأة بغيا رحمت كلباً وجدته يلهث من شدة العطش ، فشقت خمارها لترفع له المـاء من البئر فسقته فاطلع الله عليها فغفر لها ، ويسمعون منه صلى الله عليه وسلم أن امرأة دخلت النار فى هرة ، حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض .

ويرونه صلى الله عليه وسلم يحلم على أعرابى جاءه يسأله شيئاً من متاع

Marfat.com

الدنيا فيغلظ الاعرابى القول للنبى صلى الله عليه وسلم ، فيهم بعض الصحابة ليبطش به ، وإذا بالنبى صلى الله عليه وسلم ينهنه صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم إلى بيته ويزيد فى الاحسان إلى الاعرابى حتى يبدل غلاظته لينا ولطفا ، وجفوته سماحة ودعة ، ثم يقول له : أرضيت ؟ فيقول الاعرابى : نعم رضيت ، فجزاك الله من أخ وعشيرة خيراً ، فيقول له النبى صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى عليك شىء ، فاخرج اليهم : وقل أمامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابى راضياً ، ويعرف هذا الرضا فى وجهه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ثمرة التربية العملية للنفوس البشرية فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لدخل النار .

فهذا درس عملى ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث القلوب فيها أبلغ من براعة الألسنة ، حيث ملأها رحمة وسماحة وغرس فيها حب الجود والبذل وزينها بالحلم ، وجمع لها مكارم الأخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقى صور الخير والبر والشفقة على عباد الله ، لأنهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه فى مدرسة النبوة والذين يسمعونه بآذان قلوبهم ممن يقتفى آثارهم كيف يقوى المؤمن على دوافع بشريته، ويرتفع فوق مستوى دواعى غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطوات والهواجس وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الأعمال ، وعظيم الأقوال ؛ وذلك أن محاسبة النفس هى الدعامة الأولى فى بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب العبودية، والعبودية هى الباب الى حضرة القدس والشهود ، يقول أبو سعيد الحسن البصرى : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله عز وجل .

Marfat.com

ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو امراً صغيراً عندالذين لا يلاحظون أنفاسهم لله تعالى ، وكبيراً عظيما عند من أدبوا بالتقى وذل العبودية ما رواه المحاسبي فى «الرعاية» من طريق أبى داود الطيالسى عن عبدالعزيز الماجشون عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبا بكر رضى الله عنه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ، فقال : لا ؛ ما أحد من الناس أعز على من عمر . قال المحاسبي : فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها .

وبهذه المحاسبة للنفس يكون وقوفها أبداً على قدم الإخلاص لله فى العبودية فتطهر من أردان الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدرات الظلمات المادية ، وتتحرر من رق الشهوات والرغائب ، وتخلص من قيود الأنانية منطلقة فى بقائها الإنسانى الكامل إلى آفاق الإشراق الروحى ، وتخضع لها جوارح الجسم طواعية منسجمة مع توجهات القلب بكليته إلى الله تعالى انسجاما يستوى فيه ظاهر الإنسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحبه الله حباً يسخره به لمرضاته ، فلا يراه إلا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد الله حباً لا يرى معه فى الوجود غيره ، وإذا أحب الله تعالى عبداً كان له سمعاً يسمع به وبصراً يبصر به ، ويداً يبطش بها ، وذلك نهاية ما يطلبه العارفون . وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

أولئك هم الأدلاء على الله لا يرجّون أحداً فى معصية الله ولا يقنطون أحداً من رحمته يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، ويسلمون بالقضاء . ويشكرون على النعماء ؛ يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة الى الله تعالى ، علماً بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته وعلماً بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره .

Marfat.com

ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متباعدين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم . مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ؛ زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين . من المعاد مشغولين ببثهم ، مؤثرين على أنفسهم ، لكل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأهاديل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب .

ذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها(١) .

على هذا الصراط المستقيم كان أئمة الهدى من أعلام مدرسة النبوة المحمدية واتباعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ، ولم تدنس الأهواء والشهوات أعمالهم .

مضوا طاهرين مطهرين على السمت الأقوم ، والنهج الأعدل الأحكم لم تملهم الدنيا عن سبيـــل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا معها اغتراراً بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذائذها بجسومهم وأرواحهم فى غير رضا الله ، واقبلوا عليها بجدها وشظفها بقلوبهم وعقولهم فى رضا الله ، واتخذوها مطيتهم إلى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بفضله أوامره ، وفقهوا بتوفيقه نواهيه . جعلوا الأمر والنهى سياج أعمالهم ؛ بهما يتحركون ويسكنون . لا يراهم الله حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث امرهم ، علماء بالله يخوضون بحار العـــلوم والمعرفة تفقها فى دين الله ،

---

(١) من كلام الحارث المحاسبى .

Marfat.com

واستطلاعا لجلال الله فى صنائعه . يجاهدون أعداء الله ليردوهم إلى حظيرة حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم أن ينالهم أليم عقابه يسكنون تحت وطأة الأقدار رضا بقضاء الله . يقومون فى حركاتهم بنعمة الله ، ويقعدون فى خلوانهم لذكر الله . قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء فى رحمة الله ، والخشية من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن أنفسهم إلى عمل من الأعمال ، يظمئون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توابين أوابين . قوامين بالقسط ، شهداء لله على أنفسهم بالقصور والتقصير فى جنب الله ، يسمعون كلام الله وهم يبكون شوقاً إلى ما طالعوا من غيب الله فيما أعده من جزاء الرضا والرضوان لأحبابه وأوليائه ، وترتعد فرائصهم فرقاً من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون فى سبيل الله ، عكوف فى مجالسهم على محبة الله ، مُصفرة وجوههم . نحيلة أجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن غفلة منهم فيظنهم فى سياق الموت من خشية الله ، لا يطفىء نورُ يقينهم نورَ علمهم مرهفة أسماعهم إلى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم أرواح منطلقة من سجنها، يحسبهم الغافل عن حقيقتهم إذا رآهم فى انتفاضتهم جِنة تتواثب فى ملاعبها ، إذا استنفروا جهاداً لإعلاء كلمة الحق ، نفروا باذلين أنفسهم لله كأنهم أسد الشرى تدفع عن عُرنها وتذود عن أشبالها ، أشجع الناس فى دين الله قلباً وأسخاهم لله نفسا . فرحين بنداء ربهم ، يقتلون أعداء الله ويُقتلون فى سبيل الله إيقاناً بوعد الله مستبشرين بما وفوا بعهد الله ، تدور وجوههم إشراقاً إذا استشهدوا فى حب الله كالقمر فى تمامه ، يشرق فى سماء صافية الأديم ، يقينهم محصن بالعلم ، وعلمهم معتمد على اليقين ، إيمانهم شهود ، ومنتهى معرفتهم بالله هو عجزهم عن الوصول إلى حقيقة وراء ـ آيات الله ، يقول الصديق الأكبر فى تصوير نهاية العارفين (العجز عن درك الإدراك

Marfat.com

إدراك) انتزاعا من فيض إشراق النبوة فى أدب العبودية (لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) .

وتفسير هـذا : أن أرقى مقامات القرب هو مقام العبودية ، وهو خصيصة الأنبياء فى إضافة التخصيص جملة لسائر الأنبياء ـ وتفصيلا مميزاً لأولى العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هو حجاب الأدب الذى لا يهتك ستره بالتطلع إلى سبحات الجلال إلا مطرود محروم .

وبهذا الأدب الأشم الأعظم أثنى الله تعالى على حبيبه سيد الأنبياء وامام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فوق الثناء عليه بتخصيصه بإضافة العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صفاته فى قوله (سبحان الذى أسرى بعبده) كان ذلك الثناء الأشم فى مقام (قاب قوسين أو أدنى) بقوله عز شأنه (ما زاغ البصر وما طغى) .

ومن ثم كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو الصديق الأكبر ، والتلميذ الأول لإمام المقربين وسيد العابدين، لأن الله تعالى جمع له ما تفرق من معانى العبودية وأسرار القرب فى سِيرَ العارفين العابدين المقربين من خاصة المؤمنين ، فهو المثل الأعلى لهم فى حياته وأعماله ، وسره وإعلانه ، كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما تفرق من نعوت العبودية الخاصة فى جميع الأنبياء والمرسلين .

ويتفاوت حظ العابدين فى أدب العبودية ومراتبها بتفاوت درجات القرب من منبع الفيض فى العلم بالله تعالى ، ولما كان أبو بكر رضى الله عنه أقربهم إلى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظه منها الغاية التى يقف دون إدراكها كل عابد من خاصة المؤمنين .

Marfat.com

وتأتى بعـد ذلك درجات الصحابة أجمعين متتابعة تتابع مراتبهم من من القرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ناله كل واحد منهم من نصيب فى العلم بالله تعالى ، وليس أحـد منهم رضى الله عنهم إلا وله من ذلك حظ يفوق حظ كل ولى لله جاء بعدهم لاختصاصهم بإشراق أرواحهم برشحات أنوار النبوة ، وأعظمهم فى نفحات القرب الراشدون على مراتبهم فى الخلافة . وهى أجل مراتب الولاية والعبودية .

ولهـذا كانت سيرتهم فى مجال حياتهم وسائر أعمالهم وكافة حركاتهم وسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة « التصوف » الذى يعرفه الإسلام ـ بحقيقته العملية التى تمثلت فى الزهد الواجد والورع الصادق ، والتعبـد الكامل ، والإخلاص الباعث على البر والإحسان لكافة الخلق ، لأنهم عيال الله ، وأحبهم اليه أكثرهم نفعاً لعياله .

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سـيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم المعْبَـر الى إشراق أنواره على من أراد العبور الى منازل القرب ، والطرق كلها الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم مسدودة إلا طريق أصحابه الناقلين إلى الناس سيرته بسمتهم وأعمالهم كما أن الطرق كلها إلى الله تعالى مسدودة إلا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيرته وسمته وسائر أحواله وأفعاله وأقواله وشمائله .

فالتصوف الذى يعرفه الإسلام عمل تطبيقى فى واقع الحياة لسيرة رسـول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصـة أصحابه ، وقد أخذه عنهم بحقيقته ــ لا باسمه ولفظه ــ العابدون من تلاميذهم أهل المعرفة والعلم بالله ثم تلقاه مُثلا حية من العمل فى سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم من أهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء وأولئك على نهج أساتذتهم ومربيهم من أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يعملون كثيراً ،

Marfat.com

ولا يتكلمون إلا قليلا ، فلم يعرفوا للتصوف علماً خاصاً يميزه عن علمهم بالكتاب والسنة ، ولم يعرفوا له نظاماً خاصاً يميزه عن نظامهم فى حياتهم وسيرتهم التى عليها درجوا بين صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز بأوصاف لا توجد فى كافة صالحى المؤمنين ، يكره أحدهم أن يتكثر بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه خشية العُجْب على نفسه ، روى أن محمد بن سيرين كان إذا خرج إلى مكان يقصده وأراد بعض أصحابه ومريديه أن يصحبه يقول له : إن لم يكن لك حاجة فارجع .

ويكره أحدهم إلا يجدّ السعى فى الحصول على قوته وقوت عياله بل فى الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة لرحمه ، روى أن سعيد بن المسيب كان يقول : لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ، ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر فى الزيت . ولا يقبل صلات الخلفاء والولاة .

ويكره أحدهم أن يتميز على سائر المسلمين فى زيه وشكله ومكانه فى مجلسه ، ويكره أحدهم أن يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه بقوته ويمونه لا يدرى من أين جاءه بهذا القوت ، يقول إبراهيم بن أدهم : (أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن أدهم هذا كان من أبناء الملوك . لاحظته عيون العناية الإلهية ، فخرج عن ملك الدنيا إلى الله تعالى يطلبه فى عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس فى الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت فى الحركات تظاهراً بالتقى ، وإنما كانوا يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة فى صالح العمل ، يرى أحدهم

Marfat.com

أن خدمة فرسه الذى أعده للجهاد فى سبيل الله ومسح أعرافه من أجل أنواع العبادة وكانوا يرون السعى على أرامل المسلمين وخدمة يتاماهم وضعفائهم تحنثاً وتقى ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . يجهرون بكلمة الحق فى وجه الظلمة . لا يبالون أكان الموت يسبقها إليهم أم هى تسبقه فتصدع قلوبهم ، لا يرون أبداً على باب أمير أو ذى سلطان ، فإذا اضطروا إلى شىء من ذلك نصحوا لله ورسوله ، يردون هداياهم ولا يقبلون شيئاً من أموالهم .

وكان فيهم الإمام العادل ، والخليفة الراشد والقائد الشجاع والعالم الربانى ، والصانع الماهر ، والتاجر الصدوق ، والزارع المحسن ؛ فهم فى الأمة روحها الذى تحيا به ، وعقلها المدبر الذى تفكر به ، وقلبها النابض بالخير وشعورها الحساس ، يستسقى الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على الأعداء بأسيافهم وبركاتهم ، يقلون عند المغنم تعففاً ، ويكثرون عند سماع الهيعة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، وأخلاقهم مرضية ، لا يحدثون الناس بما لا يفهمون ولا يفتنونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل إليها مداركهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون إلى الله بالموعظة الحسنة .

* * *

أولئك هم الرعيل الأول من صفوة المؤمنين فى عهود صفاء الدين ، وطهارة اليقين ، عهد نقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل فى طياتها العقائد النابتة فى منابت الوثنيات المفلسفة محمولة على مراكب ذوى السلطان ، وركائب السياسة التى تبطنها طوائف الطامعين الطامحين . فخلطوا قضاياها بقضايا الدين ، وأحاطوا هذا الخليط المتنافر بمنطق دخيل براق

Marfat.com

استهوى بعض العقول ، فركنت إلى مقاييسه ، تقيس بها أمور العلم والمعرفة ومحصول الأفكار . محاولة أن تخضع لمعاييرها سنن الله فى شرائعه التى لا يستقل العقل الإنسانى بمدركاتها ، بل يعجز هذا العقل فى بعضها عن أصل إدراكها .

بدء التصوف النظرى وعوامل ظهوره

ومن هنا انشعب التفكير الإسلامى :

(أولا) إلى تفكير عقلى افتتن بالعقل وعظمه جداً حتى كاد يؤلهه ، وسلمه مقادته ، وحكمه فى النصوص المنزلة يتأولها إذا لم يطق فهمها ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على أصول الدين فأصبحت قاعدة من قواعده فقالوا: إذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص. ولا ندرى كيف قبل مفكرو المسلمين من الأحرار أهل الديانة والمعرفة بالله وشرائعه هذه القاعدة على إطلاقها ؟ ولماذا لم يضعوا فى مقابلها : إذا تعارض النص القطعى مع العقل وجب تعجيز العقل ؟ لأن النص القطعى إلهى قد يعجز العقل عن إدراك حقيقته اليوم وتكشف له غداً ، والعقل مهما بلغ من القوة فهو محدود الغاية فى التفكير قاصر باعترافه عن إدراك كثير من الحقائق التى يعترف بوجودها ولا يدرى حقيقتها .

يمثل هذا الفريق من ذرى الفكرة المقليين جداً طوائف المعتزلة والمتفلسفة ، فالعقل عند هؤلاء كأنه معصوم من الخطأ ، مطلق العنان لا يقف عند حد فى التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره فى مجالات الفكر الإسلامى ، ولايزال هذا الخطر جاثماً فى أفكار المجددين المعاصرين .

Marfat.com

(ثانياً) إلى تفكير نصى يلتزم حرفية النصوص ، ولا يفسرها إلا بألفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كأنهم قابلوا غلو العقليين بغلو مثله ، يقف منه على طرف الجانب الآخر ، فغمطوا العقل حقه ، لأن الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف إلا بعقل والتكليف لا يتم إلا بفهم التكاليف ولم يجعل الله تعالى للإنسان وسيلة لفهم شرائعه التى كلفها عباده سوى مامنحهم من عقل ، ووظيفة العقل معها إدراكها جملة فى أصولها كلها وإدراكها تفصيلا فى الكثير من جزئياتها ، وقد يقف فى إدراك القليل منها مسلما لها ، أو متربصا الفتح بفهمها .

وهؤلاء يتفاوتون فى استمساكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهم يغالى جدا فلا يبيح لعقله أدنى حركة نحو فهم النص على غير ظاهره ، مهما كان هذا الظاهر ، ومن هؤلاء طوائف المشبهة والمجسمة وهم أغمار المفكرين ، وبعضهم يبيح لعقله أن يجوس خلال النصوص فى أناة وحذر ، يتأول منها ما يخالف الأصول المتفق عليها والتى قد أوضحتها أصول أخرى جاءت فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية .

(ثالثاً) إلى تفكير لا يبخس العقل حقه من الإدراك ، ويطلق له العنان فى دائرة استطاعته المحدودة ، فهو فى نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بادراك كثير من أمور الدين الأصولية والفرعية ولكنه قادر على فهمها إذا جاءته تكليفا .

ويمثل هؤلاء متكلمو أهل السنة من الأشاعرة وبعض مفكرى الفقهاء الذين اضطروا إلى مجابهة الفرق الأخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم فى محافل الجدل ليجادلوهم بأساليبهم وقوانين منطقهم ، حفاظا على عقائد الأمة أن تشوشها شبه المتفلسفة وإن يفسدها اعتساف التأويل .

Marfat.com

وحينئذ رأى أهل العلم بالله من زهاد الأمة وعبادها أن تيار الجدل الفلسفى كاد يجرف الناس ويشغلهم عن إخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد من صيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حظائر المعرفة إلى ساحاتها وترشد الحائرين إلى الجادة ، وتهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، ورأوا أنهم لايستطيعون القيام بهذا الواجب الذى يحتمه داعى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهو من أعظم خصائصهم - إلا إذا خرجوا إلى الناس من محاريبهم . يدعونهم إلى ربهم بأسلوب علمى منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا يتطلب منهم النظر فى نصوص الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص بموضوعه ، ويضعه تحت عنوانه فى بابه تبيانا لحكمته ، تقريبا للعقول والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة فى الزى والشكل ، وإن كان يخالفه فى الحقيقة والموضوع ، بعيدين عن ميادين الجدل والمراء .

لذلك أخذ فريق من أعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ، منبها على معانيها مشيرا إلى أسرارها ، مبيناطريق العمل بها ، شارحا آثارها مستشهدا بمواقف السابقين من صالحى الأمة فى أشباهها ، تحبيبا للعمل فى طاعه الله والإخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا فى كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع ، والإخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب بين محكم ، لانجد لهم كلمة موهمة ، ولاعبارة محيرة ، يكسو كلامهم نور الحق وضياء الهدى .

وكان من حملة هذا العلم المصفى المنظم فى الكتب ، المضبوط فى المؤلفات ، نقيا خالصاً قرآنيا نبويا أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وأبو سعيد الخراز ، وأبو طالب المكى وإضرابهم من سلف زهاد الأمة وعبادها ، وهم وإن اختلفوا روحانية ونفسا وصحة فى التأليف

Marfat.com

وإراد النصوص متفقون فى الاتجاه والغـاية ، ومتسلسلون فى الحياة والزمن .

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصيين الحرفيين والفقهاء والمتكلمين بجميع مذاهبهم، وسائر الفرق الأخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسيرون فى طريقهم داعين إلى الله تعالى مخلصين له الدين لا يمارون ولا يجادلون ، ولـكنهم تناولوهم بأقلامهم وألسنتهم يناقشونهم وينقدون طريقتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق . وكأن سلوكهم مذهب من مذاهب الفـكر الجدلى ، ولم يقصد أهل العلم بالله تعالى من الرعيل الأول بمؤلفاتهم إن يكونوا طائفة أو فرقة أو أصحاب مذهب من المذاهب ، يجادلون فيه ، ويناضلون عنه ، وإنما كان قصدهم الدعوة إلى الله ، وضبط أبواب العلم بالله ، والـكشف عن حِكَم فرائضه وتعبداته ، وتحبيبها للناس ، أداء لحق الله فى نصيحة عباده .

ولهذا لم تـكن لهم مؤلفات فى القرن الأول وكانت مؤلفاتهم نادرة جدا فى القرن الثانى لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم فى مجالس تذكيرهم وحلقات وعظهم نقلها عنهم مريدوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وهو العصر الذى احتدم فيه الجدال بين الفرق ووقعت فيه على أهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفى هذا العصر علا صوت الفلاسفة وأهل الاعتزال من مؤلهى العقل على سائر الفرق ، وفيه بدأ متـكلمو أهل السنة من الذين يجمعون بين النقل والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذى يعسر على عامة الأمة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتماد عليه فى تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى .

Marfat.com

ويظهر أنه كان فى طليعة من وطد لهم قواعد التأليف المنظم الشامل فى علوم الزهد والورع والاخلاص وأقام لطريقتهم دعائمها ، ووطأ لهم سبيله الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي وفى كتابه « الرعاية » ما يشهد بذلك فهو أول كتاب جامع لأبواب السلوك العملى فى أسلوب علمى على نهج الزاهدين العباد من أهل العلم بالله وكان المحاسبي معاصراً للإمام أحمد بن حنبل ، وكان عليما بظاهر الشريعة وأصول الدين على قواعد المتكلمين وخبيراً حاذقاً بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على المبتدعة فأنكر عليه الإمام أحمد فقال له الحارث : الرد على المبتدعة فرض، فقال أحمد : نعم ، ولكنك حكيت شبههم أولا ثم أجبت عنها ، فلم يؤمن أن يطالع الشبهة مَن يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم حقيقته .

ولكن المحاسبي اتجه (بعد أن رأى أهل زمانه مضيعين لرعاية حقوق الله ، وهو الأمر الذى تولى الله عليه أنبياءه وأحباءه ، لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته) (١) إلى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا فى عصره قد نظموا عقدهم فى طائفة تدعو إلى الله بالعلم والعمل ، فأنكر عليه وعليهم أيضاً الإمام أحمد بن حنبل فلما سمع منهم دون أن يشعروا استغفر الله من انكاره عليهم ، قال الشعرانى فى الطبقات : قيل لأحمد ابن حنبل رضى الله عنه إن الحارث المحاسبي يتكلم فى علوم الصوفية ويحتج لها بالآى والحديث ، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر ، فقال . نعم ، فحضر معه ليلة إلى الصباح ، ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً ، قال الإمام أحمد . لأنى رأيتهم لما أذن بالمغرب تقدم فصلى بأصحابه ، ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه ، وهو يأكل ، وهذا من السنة ،

---

(١) الرعاية للمحاسبى .

Marfat.com

فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس أصحابه بين يديه ، وقال : من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل ، فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليها بالآى والحـــديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ فقرأ فبكوا وخشعوا وانتحبوا ثم سكت القارىء ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام إلى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف أحمد رضى الله عنه بفضله ، وقال : كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم (١) .

وكان أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز رضى الله عنه أماما من أئمة الزهد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو معاصر للإمام المحاسبي فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجرى وقد وضع أبوسعيد فى بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف فى علم المعاملة والسلوك .

وكتابه (الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية خلع الله عليه حلية القبول ونحسب أن قارئه لا يخرج من قراءته إلا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الإخلاص فى العلم ، وهو يدل بقرب شبه من « رعاية » المحاسبي رضى الله عنه على وحدة المسلك فى صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى أظهر دلالتها ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق وافعى للنصوص ، وهذه كانت سمة « التصوف » فى عصر هذين الإمامين .

والحارث المحاسبي ، وأبو سعيد الخراز مثلان من أصدق الأمثلة فى عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التى لم تفارق السمت الأقوم من الأدب الشرعى والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من أن الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها فى القرن الثالث الهجرى كيانا

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى .

Marfat.com

خاصا له معالمه التى تدل عليه ويعرف بها ، وأصبحت طائفة لها علومها ورسومها وسلوكها .

يقول المحاسبي فى كتابه (الوصايا) ثم انى وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده : والإخلاص لله تعالى بطاعته والتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم (١) .

ويقول أبو سعيد «كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل » .

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم فى هذا القرن الحاشد بهم — مما يدل على أنهم شعروا أن شيئا بدأ يطرأ على نزعات بعض أتباعهم ، يفتح باب التقول عليهم بتخطى سياج الشريعة إلى أمور لا تقرها نصوصها فأراد أئمتهم دفع قالة السوء عن طائفتهم ، وبيان أن أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ، فكل مايخالفهما فهو باطل ، لا اعتداد به عندهم ولو صدر ممن يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، ويطوى له المكان وينشر له الزمان ، يقول أبو يزيد البسطامى : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، بل انظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة . وروى القشيرى فى الرسالة أن أبا يزيد قال لبعض أصحابه : قم بنا ننظر هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

---

(١) مقدمة الرعاية للاستاذين : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور .

Marfat.com

ويقول سرى السقطى: المتصوف اسم لثلاثة معان وهو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزة البغدادى : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأفعاله وأقواله .

ويقول أبو القاسم القشيرى فى الرسالة بعد أن ترجم لعدد من متقدميهم فى علوم المعاملات والزهد والورع ، وأكثر من ذكرهم من رجال القرن الثالث : (هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعة السنة ، غير مخلين بشىء من آداب الديانة متفقين على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتونا ، هلك فى نفسه وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله .

* * *

ومن العجيب أن بعض هؤلاء الأكابر أصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قوانين الشريعة وأحكامها وأن أبا يزيد وهو صاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان فى طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامحة التى يعسر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره ألفاظ خارجة عن نطاق أصول الشريعة .

ومخرج ذلك فى الجملة — عندنا — أحد أمرين .

أولهما — أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج لله فيهم وقارا ، تشويها لسلوكهم وتعويجا لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذى نقلنا طرفاً منه فى تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصريح

Marfat.com

بأن كل من خرج فى قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ؛ كما يتأيد أيضاً بأفعالهم التى جعلوا سياجها تقوى الله والزهد فى مظاهر الدنيا والورع فى الحلال فضلا عن الحرام ، والتزام الفرائض وكثرة نوافل الخير فى آناء الليل وأطراف النهار ، وبعيد جداً أن يكون صاحب هذا السلوك متصنعاً للناس يظهر خلاف مايبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما — أن القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعبد ، ومناجاة فى خلواتهم مع الإخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من أعمالها ، وأن مرد الأعمال عندهم إلى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله فى سائر أوقاتهم ولله على عباده المتعرضين لنفحاته فيوضات من الإشراق الروحى تنزل على قلوب المخلصين ، فإذا فاجأتهم لمعات الإشراق بقوة فيضها ضعفت تحت أشعتها المرسلة من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا عن حقيقتهم التكليفية واندفعت ألسنتهم تعبر عن مشاهد الإشراق فعجزت العبارة عن الأداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة فى مقياس الشريعة والعقل ، القاصرة فى ميزان المشاهدة والمكاشفة .

فعجز بشريتهم عن تحمل مباغتات الإشراق هو الذى أدى إلى قصور العبارة عن أداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الأداء هو الذى ألبسها جلباب الجموح عن جادة الأصول الشرعية

ولعل هذا المعنى هو بيان مايعتذر به عنهم المعتذرون عن أن ذلك صدر عنهم فى حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم .

ولهذا لاتوجد أمثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لتمكنهم من منازل الشهود وصحوهم دائماً وقوة أرواحهم وصفاء بشريتهم بما كسبوه بمشاهدة أنوار النبوة مباشرة كالصحابة أو بالواسطة القريبة كحال التابعين وكبار اتباعهم .

Marfat.com

وهنا نلاحظ أن الذين نسبت إليهم تلك الكلمات الجامحة أكثرهم من سلالات كان لأصولها القريبة أو البعيدة نسب واسع فى العقائد المفلسفة ، كما نلاحظ أن العصر الذى عاشه من نسبت إليهم تلك الكلمات الجامحة كان عصر تفلسف فى العقيدة الإسلامية من جانب أنصارها دفاعا عنها ومن جانب خصومها إفساداً لها ، فهل كان لذلك التفلسف العقيدى فى العصر الذى عاشوه أو إصالة النسب فى السلالات المفلسفة أثر فى ذلك ؟ هذا شىء يحتاج إلى بحث عميق واستقصاء بعيد المدى لم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ، ونحن نميل إلى تبرئة الأكابر من أئمة الصوفية فى عصرها الأول الذى استقامت فيه معالمها ، وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتها التى صورها المحاسبي والخراز فى كتابيهما ، ونرى أن كل قول يخالف نصاً قطعياً فى الشريعة نسب إلى أحدهم هو من باب التقول ، والكذب عليهم .

* * *

هكذا مرت الصوفية والتصوف فى المرحلة الأولى من الحياة فى تاريخ الإسلام ، ففى القرن الأول نبتت بذرتها على أيدى الزهاد والعباد وأهل الورع والتقوى الذين أرمضت الفتن الداخلية فى الأمة الإسلامية قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياماً بحق ربوبيته مخلصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها .

ولما انفرط عقد القرن الأول ، ودخل القرن الثانى كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضة الأهاب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ أهلها يتحدثون عن المراقبة والإحسان والإخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعاية حقوق الله والصدق فى معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لوناً جديداً للعمل والجد حتى أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث الناس به حين يشيرون إليهم كما أصبح لهم كلمات خاصـــة تتردد فى مجالات معارفهم

Marfat.com

وعلومهم ، عرفت بهم وعرفو بها ، ونهض جماعة من أهل علومهم ومعارفهم يقيدون أقوال أئمتهم ، ويرصدون كلماتهم إلى جانب آى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضى الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من وارداتهم المستنبطة من صفاء باطنهم وقيامهم على العمل بالشريعة المطهرة على قدم المراقبة والإخلاص. وكانت أحاديثهم فى التوحيد والإخلاص ومراقبه النفس .

ومن هنا نبع عندهم ماسموه بعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس إلا زبدة العمل بالشريعة ، وثمرة المجاهدة فى القيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق إلا بالعلم وهو علم الشريعة فمن علم الشريعة وعمل بما علم علمه الله علوما كثيرة وأفاض عليه معارف لانهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضانة للصوفية والتصوف ، فيه شبت على أقدام التكوين الطائفى ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئتها إلى أن تبرز فى وجود الحياة الإسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكد ينصرم القرن الثانى حتى كانت الصوفية والمتصوفة طائفة من خلاصة المسلمين قائمة بذاتها بين الطوائف الإسلامية ، لها خصائصها ومعالمها التى يستدل بها عليها وميزاتها التى تعرف بها ، ولها أصولها ومعارفها ، ولها مصطلحاتها فى تلك العلوم والمعارف ، ولها أئمتها ورواداها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتها الخاصة التى تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبودية الغرائز ، وتصفيتها من كدورات الأهواء والرذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها فى عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بآلائه ونعمه ، ليجذبوهم إلى حظائر قربه ومعرفته .

Marfat.com

وفى هـذه المرحلة كان أخص مايتحدث فيه أئمتهم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الأقوم المعتمد على الأصول الشرعية ، بيدأنها كانت تخرج إلى الناس بأسلوب على غير ماعهده العلماء فى الجدل المنطق الذى كان يسود الحياة العلمية الإسلامية منذ القرن الثانى ، بل كان أسلوبهم أسلوباً منفرداً بخصائصه خلع الله عليه جلاليب القبول ، والصولة على العقول ، يفهمه من أنس به ، وينتفع به من يسلم له ، روى أن الإمام أبا العباس ابن سريج اجتاز إلى حلقة الجنيد ، وكان يتكلم فى التوحيد ، فسمع كلامه ، فسألوه عنه ، فقال : لاأدرى مايقول ، ولكنى أجد لكلامه صولة ليست بصولة مبطل .

وفى القرن الرابع كانت الصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية فى حياة المسلمين ، استكملت جميع مقوماتها ، وأصبحت لها مدارسها الخاصة ، ومحافلها الحاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها فى التفكير ، ومناهجها فى التربية والسلوك .

وفى هذه الفترة من عنفوان القرن الرابع عاش محمد بن أبى الحسن المعروف بأبى طالب المكى صاحب كتاب « قوت القلوب » وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة وأحوالهم ومقاماتهم ، وهو دائرة معارف لهم ، ومصدر من أوسع مصادرهم . عرض فيه أبو طالب منهج الصوفية العلمى وأبان عن سلوكهم ورسوخهم فى المعارف الربانية . وطريقة فهمهم للنصوص الشرعية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حريصاً على أن يجعل من أقوال العلماء والأئمة فى فهم هذه النصوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية إلى الناس أو ليجعل فهم الصوفية فى النصوص متمشياً مع آراء علماء الشريعة الذين سماهم أبو طالب علماء الظاهر وجعل علمهم علم الظاهر ، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطاً جعل أحدهما

Marfat.com

لا يستغنى عن الآخر مع تفضيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول : ولعمرى أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه .

وهذا هو الامتياز الذى اتخذه المتصوفة خصيصتهم بين علماء الاسلام وهو الذى يدندون حوله ، وهو الذى فتح لمتأخريهم أبواب التوسع فى معانى النصوص توسعاً يخرجها عن حقائقها الشرعية ، فاذا عورضوا بمدلولات الألفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية قالوا : هيهات هيهات هذه المدلولات والأوضاع اللغوية والشرعية هى من علم الظاهر الذى يكلف به العامة ، وهناك وراء هذه المدلولات والأوضاع علم الباطن الذى هو ثمرة الفتح الناشىء عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله سبحانه ، ويستدلون بحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم .)

وأبو طالب المكى وإن كان مسبوقاً بها الاتجاه الصوفى لكنه يعتبر أول من وضعه وضعاً علمياً يحتج له بالنصوص وأقوال الأئمة من علماء الشريعة . ولهذا كان كتابه (القوت) من أهم مصادر الصوفية المحافظين .

ونحن نسوق مثلا ملخصاً من كتابه على اتجاهه هذا ليتبين حظ هذا الإمام من تأسيس التصوف تأسيساً علمياً ، وهذا التأسيس العلمى مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهى أهم وأعظم مراحله ، وعليها بنى كل من جاء بعده ، وهى الطريقة التى تبطنها الإمام الغزالى فى كتابه « الأحياء » مقارباً محافظاً على أصول الشريعة وفروعها .

قال أبو طالب فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) : قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله . أراد بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذى

Marfat.com

بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة ، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : إنما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره . وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضة كله من حيث كان الاخلاص فى الأعمال فريضة .

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة . لأنها رسل الله إلى العبد ، ولأنها أول النية التى هى أول كل عمل ، وعنها تظهر الأفعال ، وعلى قدرها تضاعف الأعمال فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الأحكام وهذا عند هؤلاء فريضة، وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى . وعبدالواحد بن زيد وأتباعهم من النساك وقد كان أستاذهم الحسن البصرى يتكلم فى ذلك ، وعنده علم القلوب .

وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، إذ قد أمر الله تعالى به وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء فى حديث مفسر : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال إلى هذا القول ابراهيم ابن أدهم ، ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد ، وحبيب بن حرب .

وقال غير هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن استعمل منه ، واقتضى منه مدة دون غيره من عوام المسلمين ، ولأنه جاء فى لفظ الحديث : (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين ، وهو عن أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى .

Marfat.com

وقال جندب : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الايمان ، ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيمانا ، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الايمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الأمر والنهى والفرق بين الحلال والحرام إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك .

وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً ، وإنما فيه فضل أو ندب .

وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشرا . ،والنكاح والطلاق وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله فى ذلك طلب علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر فى سوقنا هذا إلا من تفقه ، وإلا أكل الربا ، شاء أم أبا ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، ومال إلى هذا سفيان الثورى، وأبو حنيفة وأصحابهما

وقال آخرون . يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وإنما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الإصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والأثر .

وقالت طائفة من هؤلاء : إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع فى وهمه ولا يجيك فى صدره شىء من الشبهات فيسعه ترك البحث ، فاذا وقع فى سمعه شىء من ذلك ووقر فى قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفى حقاً فافترض

Marfat.com

عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكاً فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ،أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتبهاً علينا فنتبع الهوى . وهذا مذهب أبى ثور ابراهيم بن خالد الكلبى ، وداود بن على ، والحسين الكرابيسى ، والحارث بن أسد المحاسبى ، ومن تابعهم من المتكلمين .

قال أبو طالب رحمة الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر . حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالألفاظ لنا . والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى إلا أهل الظاهر منهم ، فانهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن تأولوه على علمهم ، ولعمرى إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان . مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه .

ثم قال أبو طالب : والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر ـ والله أعلم ـ أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة ، يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم أن العمل لا يصح إلا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضاً حيث افترض العمل .

Marfat.com

ثم ذهب يفصل القول فى إدخال جميع الأقوال المعتبرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والخواطر واليقين من المتصوفة فى عموم القول الذى اختاره ، وهذا حسن بيد أنه إخراج للحديث عن عمومه المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من النصوص الخاصة فى بعض العلوم ، وإدخال أصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث .

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على ألسنة العلماء ، الذى يعتبرونه سنداً قوياً فى نصوص الإسلام على حبه للعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما وإعظامهما والحث عليهما . انه ـ كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على عمومه فى سائر أنواع العلم والمعرفة . والمخاطب به الأمة كلها . فلا يخرج عنه علم من العلوم . ولا باب من أبواب المعرفة . ولا ينبغى قصره على شىء منها دون غيره . فرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الأمة ، وفرض الأعيان متوجه على الأفراد والذوات المكلفين فى ضمن عموم خطاب الأمة .

وفى إيراد هذا الحديث بنصه الذى أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حديثية تثنى الإمام أبى طالب ، حيث رواه مقطوعاً عما زاده فيه بعض المتأخرين ممن لم يتمرس على النظر فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمة (ومسلمة) وهو بنصه الصحيح كما رواه الثقاة ، وكما ذكره فى « القوت » لا حاجة به إلى هذه الزيادة ، لأنه جرى على سنن النصوص العامة التى ترد بلفظ التذكير . ويراد بها ما يعم الرجال والنساء فى التكليف باعتبار أن التكليف يسوى بين الرجال والنساء ولا يفرق بينهم ، والنساء شقائق الرجال فى جميع الأحكام إلا ما خصه الدليل بالنص ، أو بطبيعة الخلقة الإلهية والتكوين الربانى .

Marfat.com

فانظر إلى هذا الإمام العالم الصوفى ، المتفقه الربانى كيف أدار الحديث فى بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض فى تفسير معناه أقوال العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين والنساك المتعبدين أرباب علم القلوب ، بل كيف أدخل فى معناه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعل تلك الخطرات معنى محتملا فى جملة مايحتمله الحديث فى التفسير والمعنى ، وانظر إليه كيف استدل لكل قول بنصوص من الأحاديث وأقوال أكابر الصحابة رضوان الله عليهم التى وردت فى تلك المعانى الخاصة بمحل ورودها ، حتى المعانى التى نحا نحوها المتصوفة استدل لها بنصوص خاصة فى معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عندهم متداولة بينهم ، ولكنها لاترتفع إلى درجة حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) .

فأبو طالب المكى رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمى فى كتابه أن يفهم قارئوه من سائر الطوائف والمذاهب أن (المتصوفة) لايذهبون فى فهم النصوص فهماً لاتحتمله معانيها ، فهم وإن قالوا يعلم الباطن فى تفسير النصوص فإنهم لايخرجون بباطنهم عن مواخاة علم الظاهر .

وذلك هو ماقصدناه بقولنا : ان أبا طالب المكى أسس بكتابه « القوت » التصوف تأسيساً علمياً ابتدأت به المرحلة الثانية من مراحل « التصوف » .

* * *

جاء بعد أبى طالب المكى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى الإمام زين الإسلام أبو القاسم القشيرى وكان من أئمة المسلمين فى الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله فى الحديث وروايته مكان لايقتحم ، وفى التفسير مقام لاينكر ، وفى الأدب وبراعة البيان كان آية من آيات الفصحى ، وكان فى حدة الذكاء وقوة الحافظة مثلا

Marfat.com

مضروباً ، روى أنه اختلف إلى درس الأستاذ الإمام أبى إسحاق الاسفراييني ، وسمع دروسه فى جملة أيام ، فقال له الأستاذ : هذا العلم لايحصل بالسماع ، فأعاد على الإمام جميع ماسمعه منه فى سائر الأيام التى حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منـــه أبو اسحاق وقال له : ماكنت أدرى أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى دروسى ، يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقى ، وأن أشكل عليك شىء طالعتنى به .

وكان من حسن موافقات الأقدار الإلهية لأبى القاسم القشيرى أن جمعه الله على الشيخ أبى على الدقاق ، وهو إمام وقته فى علم المعاملات والخواطر وكان لسان الصوفية الناطق بعلومها فى عصره ، حضر القشيرى مجالسه وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده إلى الاشتغال بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الأئمة من إضراب أبى بكر الطوسى ، وابن فورك والاسفراييني وقرأ كتب الباقلانى حتى برع فى الفنون الشرعية والعقيدية والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق الذى حذق عليه علم القلوب ، وتمرس على إشارات الصوفية ولوامع خواطرهم بعد طول الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت أحوال الصوفية خلقاً له وفطرة مع تضلعه فى سائر العلوم ، وقد ألف فى كل فن كان فى عصره معروفاً فى العلوم الشرعية والأدبية مؤلفات اشتهرت بين العلماء فى الشرق والغرب ، ومن أشهرها تفسيره للقرآن الحكيم ، الذى يعد مرجعاً من المراجع الأصلية لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيرى طريق القوم على يد أستاذه الدقاق سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع فى «التصوف» رسالته التى اشتهرت فى مشارق الأرض ومغاربها حتى جاوزت شهرتها

Marfat.com

بلاد الإسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكا صوفياً بحتاً ، وهو يقول فى مقدمتها : أنه كتبها إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، ثم أخذ يذكر نعوت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره ذلك الذى امتحن فيه أكابر العلماء من أهل السنة ، وفى مقدمتهم صاحب الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ماعليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ماحصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل مايريد ، ويختار مايشاء من العبيد ، لايحكم عليه خلق ولايتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) .

ثم أخذ أبو القاسم يذكر ماأصاب هذه الطائفة فى عصره من انقراض محققيهم وخلو البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسادهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق يجرى عليهم أحكامه ، وهم محو ؛ وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت أحكام البشرية ؛ وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا) .

Marfat.com

وهذا إشارة إلى مذهب نحلة ضالة ادعت التصوف لتستر به ؛ وهم أباحيون ؛ يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيد رضى الله عنه ؛ ان من يسرق ويزنى خير من هؤلاء وهذه الإشارة من أبى القاسم القشيرى تدل على مادخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف الضالة من الباطنية .

ثم ذكر أبو القاسم أنه أشفق على القلوب أن تضل القصد فى حق التصوف والمتصوفين فتحسب أن أمر هذه الطائفة بنى قواعده على هذه الجملة التى حكاها عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة) .

والقشيرى رحمه الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى لأنه أجرى الحديث فى فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحتة ، لم يسلك فيها مسلك المحاسبى فى (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكى فى (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم فى ثنايا الأبواب والفصول ، بل يكتفى فى الأعم الأغلب بإيراد بعض النصوص من الآى أو الأحاديث النبوية فى أوائل الأبواب ثم ينفلت مسرعاً إلى أقوال الصوفية يشرح بها مايريد من ألفاظهم .

وخصص أبو القاسم رحمه الله تعالى بابا من رسالته لذكر مصطلحات القوم فى أحوالهم ومقاماتهم بألفاظهم التى تدور على ألسنتهم ، وخصص كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم .

وقد ترجم فى باب من أبواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ فى

Marfat.com

شرح تلك الألفاظ التى يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم ووجدانهم فيذكر أبو القاسم . الوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والهيبة والأنس ، والتواجد ، والوجد والوجود ، والجمع والفرق وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من ألفاظهم التى يقصدون بها إلى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم .

وذكر أبو القاسم رحمه الله فى باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك الخلاف عليهم) أموراً يتوقف فى قبولها أهل الشرع ، ولا يرضاها العقليون ، وساق فى مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام لبيان مايلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد كافة متأخرى المتصوفة على هـذه القصة فى مسألة علم الظاهر والباطن ، ومسألة الحقيقة والشريعة عندهم .

والقصة — كما جاءت فى القرآن الكريم وصحيح الحديث — لا سند فيها لشىء من ذلك ، لأنها وردت على سبب معين ، كما فى حديث البخارى ومسلم (أن موسى عليه السلام قام خطيباً فى بنى اسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه ، أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه السلام ربه على مكان هذا العبد الأعلم منه ، ليتعلم منه مما علمه الله ، فدله الله عليه ، وذهب إليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التى كان العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه لأنبيائه ، ولم يكن موسى عليه السلام على علم بأحكامها ، لأن الله لم يعلمه بها بوحيه الذى أنزله عليه ، إذ لم تكن نوازلها وأحداثها مما يحتاج إلى علم الحكم فيها ، ولم تكن من شريعته ولو كانت منها لوجب أن يكون على علم بها أداء لحق الرسالة والنبوة .

Marfat.com

ولذلك قال العلماء بالقرآن والسنة : أن معنى قوله : هو أعلم منك ، أى — بأحكام وقائع خاصة مفصلة وحكم نوازل معينة ، لاعلما مطلقا فى جميع فنون العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت) وهذا صريح فى أن كل واحد منهما كان أعلم من صاحبه بالنسبة إلى ما يعلمه بوحى الله إليه ولا يعلمه الآخر ، لأن الله تعالى لم يأمره به ؟ كما يشير إلى ذلك قوله : (وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلما) قال العلماء بالقرآن والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى إليهما ، فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى ؛ وكلا حكميهما صحيح ، لكن حكم سليمان كان أرفق بالقوم ، ولذلك أثنى الله عليهما فى نسق واحد فقال : (وكلا آتينا حكماً وعلما) ولو كان حكم داود خطأ لما أثنى الله عليه مع سليمان باعطائه الحكم والعلم معا كما أعطاهما لسليمان .

ومن هذا الباب حديث أبى هريرة عند مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بينما امرأتان معهما أبناهما جاء الذئب فذهب بأبن احداهما فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى ؛ إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى : فخرجتا على سليمان ابن داود عليهما السلام ، فأخبرتاه ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى) فحكم داود عليه السلام صحيح باعتبار التشريع العام والأخذ بالقرائن والامارات الظاهرة : وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التى ظهر له فيها

Marfat.com

صدق الصغرى فحكم لها به تغليباً لقرائنها وامارتها على قرائن وامارات الكبرى .

وفى قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم بحكم نوازله الخاصة نبياً يوحى إليه بدليل قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع أن يكون عند أحد الأنبياء — الموجودين فى زمان واحد علم بأحكام حوادث تقع فى قومه ليس هـــذا العلم عند غيره من الأنبياء الذين لا يحتاجون فى قومهم إلى حكم هذه النوازل بعينها ولا يدل ذلك على تفضيل .

ويستحيل أن يكون غير النبى أعلم من النبى لما يؤدى إليه ذلك من الطعن فى مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لغير الراسخين من القوم ولا سند لهم فى هذه القصة التى يتشبثون بها فى حكاية علم الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ما جرى فى القصة هو من العلم الشرعى الذى علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لأنه لم يحتج إليه فى قومه ، ولو احتاج إليه موسى فى قومه لوجب أن يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الأئمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وإنما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالمتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى فى هذا الباب عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال : خرجت إلى مرو فى حياة شيخى الأستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لأبى

Marfat.com

الغفلان فى ذلك الوقت بمجلس القول ـ أى السماع ـ فداخلنى من ذلك شىء ، فكنت أقول فى نفسى : قد استبدل بمجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى ، يوما : يا أبا عبد الرحمن ايش يقول الناس فى ؟ فقلت : يقولون : رفع بمجلس القرآن ووضع بمجلس القول ، فقال:من قال لأستاذه:لم؟لا يفلح أبدا.

هذه الحكاية وأمثالها يجرى مافيها عند متأخرى المتصوفة مجرى القانون الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الأستاذ ومريديه ، وليس من حق التلميذ والمريد عندهم أن يقول لأستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟ ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لأوامر الشرع ونواهيه ، وبعض مؤلفيهم يبرزه فى صياغة يجعلها من أدب المريد والتلميذ مع أستاذه فيقولون فى أدب الطريق : يجب على المريد أن يكون مع شيخه كالميت بين يدى الغاسل لا إرادة له معه

وهذا أمر خطير فى دين الإسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام من لم ترسخ قدمه فى معرفة الله تعالى ، ويؤدى إلى عدم احتشام الأحكام واحترامها ، وإلى الاستهتار بها تحت ستار الأستاذية والمريدية ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والخلفاء الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه ، فيقوم إليه رجل من عرض الصفوف ، ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين ، فيقوم اعوجاج خليفته بسيفه .

والأمة مجمعة على أن شرعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تبطل

Marfat.com

بالأستاذية والتلمذة ، ، فالحكم على المريد الذى يقول لشيخه : لم ؟ استطلاعا لوجه الأمر فى فعل لم يفهم وجهه ، أو إنكارا لعمل من الأعمال رآه التلميذ مخالفا لقواعد الشرع وأحكامه ، بأنه لا يفلح، حكم لا يقره الشرع ولا يرضاه العقل ، ويتنافى مع التربية الإسلامية التى توجب شجاعة النفس وجرأة القلب فى الحق .

والمعروف فى أدب الإرشاد الشرعى أن يترك للتلميذ فرصة الفهم لما يرى ويسمع ، ثم يسمع منه بصدر رحب مايعتلج فى نفسه ليرشد إلى الصواب أن أخطأ ، ويقوم إذا اعوج .

ويجب فى هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، ؛ يذهب وغر صدره، وبين السائل تعنتا أو تنقصا، وحق الأول رحابة الصدور والإرشاد والتفهيم والصبر على معالجته ، وحق الثانى الأدب ، كما يجب الفرق بين إنكار الأمور التى لها مخارج من الشريعة ، والأمور التى لا مخرج لها فى مذاهب العلماء ، فحق الأولى بيان مخارجها وحق الثانية التسليم لمن أنكر عليها .

ويحكى القشيرى فى هذا الباب : إن شقيقا البلخى وأبا تراب النخشبى قدما على أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهم ، فقدمت السفرة وشاب يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يافتى ، فقال : أنا صائم : فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى ؛ فقال شقيق : كل ولك أجر صوم ستة فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله تعالى ، فأخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية إذا صحت روايتها من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لأن أهل الله قلوبهم مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ، لطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم متلبس بعبادة الله تعالى، دعى إلى ابطالها ومشاركة الأشياخ طعامهم وهو شرف

Marfat.com

لهذا المريد ، ولكنه رأى أن يختار رضاء الله تعالى بالاستمرار فى عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا الشاب من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم وما كان يضر هذه الحكاية لو أنها جعلت مكان سخط الأشياخ على شاب يخدم أحدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه إلى الأخذ فى رفيع الطاعة بديلا عن الأخذ فى السرقة التى قطعت يده فيها ؟ واصبح مقصيا من حظيرة أصحاب القلوب الرحيمة ؟

نقول : إن هذه الاتجاهات يمكن أن تكون محصورة فى دائرة تربية الأشياخ لتلاميذهم ومريديهم على حسب مايرون من مواضع الأمر والنهى اتباعا لقواعد الشريعة فى تهذيب نفوس المريدين ، ويبقى ذلك فى مجالس الأدب دون أن ينشر للعامة الذين لايحسنون فهم مرامى الأشياخ .

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهباً يجب على المريدين اتباعه وعدم الالتفات إلى غيره من المذاهب الشرعية فيقول : (ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة ، وليس انتساب الصوفى إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن هؤلاء حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والناس إما أصحاب العقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه موجود ، فإنهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال) .

وهذا عجيب جدا ، فأين عمل العقل فى تأسيس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلس الأباطيل ، وحمايتها من الشبه والأضاليل ؟

Marfat.com

وهل يمكن لكل مريد أن يصل باقتصاره على مذهب المتصوفة وعدم نظره فى مذاهب الفقه والكلام أن يعرف أحكام النوازل فى العبادات والمعاملات ، وأن يحمى عقيدته من تشويش أهل البدع والضلال ؟

وأين عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذى كان طريق الصحابة وطريق التابعين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من أئمة الهدى والدين وسادة الصوفية العمليين قبل ظهور المتصوفة والتصوف النظرى .

وهل كان أبو على الدقاق ، وهو الإمام الصوفى الراسخ فى العلم والعمل ، شيخ أبى القاسم ومربيه على طريقة القوم حينما أرشده إلى الاشتغال بالعلم فى مطلع حياته يقصد بالعلم غير دراسة مذاهب العلماء فى علوم الشريعة النقلية والعقلية من الفقه والحديث والتفسير والكلام ، وهى العلوم التى نبغ فيها أبو القاسم القشيرى ، وخلف فى موضوعاتها للعالم الإسلامى مصنفات تعد بين العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الإمام المتصوف الضليع فى طريق القلوب — وهو يشهد تلميذه أبو القاسم يتردد بين مجلسه ومجالس أئمة وقته فى علوم الشريعة من أضراب الاسفرايينى والطوسى ، وابن فورك غير ناصح لمريده وتلميذه ؟ .

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك : وإنما هو حكم العصر والبيئة والمجتمع : عصر أبى القاسم القشيرى . ومجتمع الإسلام فى ذلك العصر ، هو الذى دفع أبا القاسم إلى أن يكتب هذا فى رسالته نصيحة لمريدى المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجدل والمراء من طوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن يقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته

Marfat.com

بالاشتغال بتفريع مسائل الفقه التي لم تقع نوازلها فى الحياة : وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شدائد المحن والبلايا الى حملته وحملت كثيراً من أئمة وفته على الهجرة إلى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك الغمة وعاد الأئمة إلى ديارهم ومدارسهم

هؤلاء الأئمة الأربعة الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم فى هذا الفصل ، وجعلناهم مرآة لانعكاس أطوار « التصوف » التاريخية فى الإسلام هم وتلاميذهم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ فى الإسلام ، وهم الذين تدرجوا به إلى أطواره من مهده إلى أن شب واستوى مذهبا من مذاهب التفكير فى الإسلام .

فالمحاسبى رحمه الله تعالى إمام من أئمة الإسلام ومتكلم من متكلميه الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب للأمة آداب الزهاد والنساك ، وما يجب أن يكون عليه العبد فى رعاية حقوق الله ، ومستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين وسلوكهم فى الإخلاص والعمل ليجعل مما كتب نواة لجذب الناس إلى منازل الإخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة فى عصره وجود مذهبي خالص يقصد إلى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا ولشهرته فى الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكى من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى إمام من أئمة المتصوفة ، عليم بالشريعة وآدابها ، كتب للناس آداب المتصوفة وهى فى مهدها لم تستكمل شخصيتها الاستقلالية فهى تعيش مع الفقهاء فى مذاهبهم ومع المتكلمين فى طرائقهم الأولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين فى سلوكهم . ومع

Marfat.com

المفسرين فى اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة المعالم بينهم بل كان لها سماتها فى التطبيق والعمل ، والتنسك والتعبد .

ولذلك كانت كتابة أبى سعيد رضى الله عنه مزيجاً من مصادر الشريعة الصافية ، مجملة بشواهد التبطيق العملى فى دائرة صدق المراقبة والإخلاص .

وأبو طالب المكى رحمه الله تعالى كان عليما بالتصوف كمذهب يستمد خصائصه الأولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل إذا قام على الإخلاص والمراقبة فتح أبوابا من المعرفة والعلم ، لاتفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعبد ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الأبواب من العلم والمعرفة لايقوم عليها إلا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم مالا يراه الواقفون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ؛ وهذا مايسميه علم الباطن ، ولكنه يربطه بعلم الشريعة برباط لاينقصم .

أما الإمام أبو القاسم القشيرى فقد كان رحمه الله تعالى فى رسالته صورة صادقة للتصوف فى ذروة مراحله ، ونهاية أطواره ، كمذهب مستقل بين مذاهب الإسلام فى طريقة تفكيره فى الاعتقاد والتعبد ، وصورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقتها الخاصة فى فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها فى الأعمال والمجاهدات .

وكل من جاء بعد القشيرى إما آخذ منه ، مانح بدلوه ، نازع من منبعه ؛

Marfat.com

وأما مفنسف لما أخذ منه ؛ مستمطر غيثه ؛ مستظل بظله ، وإما هارب من طريقه متستر تحت بعض أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقدوا طرائقه، وأدخلوا عليه غرائب العقائد ، وشاردات النحل والمذاهب ، كالذين همهموا بوحدة الوجود أو الذين قالوا بإسقاط التكاليف عن عارفيهم الواصلين إلى الإلحاد والإباحية من كل ما يخالف أصول الإسلام وعقائده .

* * *

ثم جاء الغزالى فوجد التصوف مذهباً قائم الدعائم واضح المعالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كيانها المستقل فى طريقة تأسيس عقائدها ، وفى طريقة تعبدها ، بل وجدها فى بلده ، وفى بيته ، حصنته بآدابها وسلوكها طفلا ، ووجهته بصدقها فى المعاملة مع الخلق إلى الاشتغال بالعلم ، فعن طريقها على يد شيخه وصى أبيه عليه وعلى أخيه عرف طريقه إلى المدارس العلميـة ، وجلس فى حلقاتها يسمع من أئمتها الفقه فى بلده طوس ، وفى جرجان ثم يرحل إلى أستاذ عصره إمام الحرمين فيلقاه فى نظامية نيسابور ، يحف حوله طائفة من أذكياء الشباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منـــه طرائق الجدل والمناظرة ، فيزاحمهم الغزالى وهو غض الشباب حتى زحمهم ، ونافسهم على علوم الإمام حتى غلبهم ، وتشبع حتى تضلع ، ولمـا توفى أستاذه رحل إلى نظام الملك الوزير العالم الصوفى ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذى لا يسامى فخالطهم وعاشرهم ، وجلس إلى حلقاتهم ونظر إلى سهرهم الليل وظمأهم بالنهار قياما لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل إلى بغداد وعاد إلى نيسابور فوجدهم قياماً فى خلواتهم على قدم

Marfat.com

الإخلاص ، طرحوا الدنيا بما فيها من أهواء وشهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعزز بالعلم ، وكان الغزالى قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذى ليس فوقه درجة لمستزيد وليس وراءه غاية لمريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره . وهو عصر كان أجمع العصور للعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، إلى جاه عريض وسلطان ينافس سلطان الخلفاء والأمراء فى الدولة ، وغلبة فى الجدل والمناظرة ورياسة فى التدريس ، وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسمعة ملأت آفاق الأرض .

ثم ماذا ؟ إنها عناية الله تعالى هى التى وجهت الغزالى إلى الانضواء تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمى العظيم الذى انفرد به الغزالى فى عصره حتى لقب بحجة الإسلام.

وخصيصة الغزالى أنه مفكر ثائر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل ، كل ما وعته العقول والأفكار ، ونظر إلى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (أنه لا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق ، ثم إنى لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلايق ، وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت

Marfat.com

فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال (١) .

وصمم العزم وأقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالى بالصوفية والتصوف ، وآمن أن فيها دواءه من أمراض الدنيا وشهواتها وأنها الطريق الموصل إلى الله ، والسبيل المؤدى إلى الفوز فى الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالى ربيب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقرى لا يمكن أن يسلك طريقاً إلا بعد أن يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فاتجه إلى علوم الصوفية فوجدها ممهدة فى كتب المحاسبى ، وأبى طالب المكى ، وأبى القاسم القشيرى ، وفى المتفرقات المأثورة عن أكابرهم يتلقاها بالسماع من ثقاتهم ، فعكف على هذا المحصول العلمى يدرسه ويبحثه حتى اطلع على كنه مقاصد اصحابه ، وظهر له أنهم خصوا بما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وعلم الغزالى يقيناً أن الصوفية أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

يقول الغزالى : وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك

---

(١) المنقذ من الضلال .

Marfat.com

التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

لم يتعب الغزالى رحمه الله تعالى فى تحصيل علوم الصوفية لأن علومه التى كانت معه وإيمانه بعلوم الصوفية وأحوالهم يسر عليه التحصيل من أقرب طريق ؛

بيد أنه تعب فى مجاهدة النفس وصرفها عن ما نوسها مما كان منغمساً فيه من أمور الدنيا التى وصفها ، فاجتمع بأشياخ الصوفية وسلم إليهم قياده يرشدونه ويربونه ويلاحظونه فى ترقياته وأحواله ، فيمتثل أمرهم ويسمع قولهم ، ويلبى إشاراتهم ، يقول الزبيدى فى شرح الأحياء (فاقتدى بصحبة الفارمذى واستفتح منه الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل ، واستدامة الاذكار . والجد والاجتهاد إلى أن جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه) .

وكان الغزالى قد اجتمع بالشيخ يوسف النساج ، وانتهى إلى أنه فتح عليه فتحاً علمياً لا فتحاً لدنيا ، وأنه أدرك أن الكتابة على الصفاء الأول أثبت من الكتابة على المحو بعد الاثبات .

لكن الغزالى يقول فى (المنقذ من الضلال) : وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها . والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وأن طريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم

Marfat.com

أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحِكَمَ الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

ثم يقول الغزالى ، وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة ظهارتها ـ وهى أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلوات استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وهذا آخرها بالاضافة إلى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه ، ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائد ، (ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه) .

ثم قال : وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ فى كتاب (المقصد الاسنى) .

والغزالى الذى يؤمن بالصوفية هذا الإيمان الذى جر عليه نقد المتفقهة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة بسهام من الطعن والتجريح لا يلغى عقله وعلمه مع السادة الصوفية إذا وصل الأمر إلى أساس العقيدة التى قضى عمره ينافح عنها ويكافح فى سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقلى الذى أسس عليه الجدل فى سبيل الدفاع

Marfat.com

عن العقيدة حتى حصنها تحصينا قوياً ووقف يحميها ويذود عنها حتى لقبته الأمة كلها (حجة الإسلام) .

والذى أشار إليه الغزالى من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الأمر إلى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذى وقع فيه كثير ممن ذلت أقدامهم ، والغزالى يذكر فيهم بعض الأكابر ويرد عليهم ونحن نسوق هذا الرد حتى يفهم كل مؤمن صادق الإيمان أننا نتبع فيما نكتب طريق الراسخين من أئمة الصوفية .

قال الغزالى فى كتابه « المقصد الاسنى » شرح أسماء الله الحسنى بعد أن ذكر ردف كل اسم شرحه تنبيها على ما للعباد من حظ فى هذا الإسم . (ولقد سمعت الشيخ) أبا على الفارمذى يحكى عن شيخه أبى القاسم قدس الله روحهما أنه قال : أن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك وهو بعد فى السلوك غير واصل ، وهذا الذى ذكره إن أراد به شيئاً يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به إلا ذلك ويكون فى اللفظ نوع من التوسع والاستعارة فان معانى الأسماء هى صفات الله تعالى وصفاته لا تصير صفة لغيره ولكن معناه أنه يحصل له ما يناسب تلك الأوصاف كما يقال فلان حصل علم أستاذه ، وعلم الأستاذ لايحصل للتلميذ بل يحصل له مثل علمه . وإن ظن ظان أن المراد به ليس ما ذكرناه فهو باطل قطعاً فإنى أقول: قول القائل إن معانى أسماء الله صارت أوصافاً له لايخلو إما أنه عنى به غير تلك الصفات أو مثلها فإن عنى به مثلها فلا يخلو إما أنه عنى به مثلها مطلقاً من كل وجه . وإما أنه عنى به مثلها من حيث الاسم والمشاركة فى عموم الصفات دون خواص المعانى فهذان قسمان وإن عنى به عينها فلا يخلو إما أن يكون بطريق انتقال الصفات من الرب إلى العبد أولا بالانتقال ، فإن لم يكن بالانتقال . فلا يخلو . أما أن يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته صفاته .

Marfat.com

وأما أن يكون بطريق الحلول وهذه أقسام ثلاثة وهى الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم واحد وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها فى الاسم ولكن لاتماثلها مماثلة تامة كما ذكرناه فى التنبيهات وأما القسم الثانى وهو أن يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فإن من جملتها أن يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والأرض وما بينهما وكيف يتصور هذا لغير الله تعالى ! وكيف يكون العبد خالق السموات والأرض ومابينهما وهو من جملة مابينهما ! فكيف يكون خالق نفسه ثم إن ثبتت هذه الصفات لعبدين يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل واحد منها خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحالات .

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضاً محال لأن الصفات يستحيل مفارقتها الموصوفات وهذا لايختص بالذات القديمة بل لايتصور أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو بل لاقيام للصفات إلابخصوص الموصوفات ولأن الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب أن تعرى بالذات التى كان عنها انتقال الصفات الربوبية فى الربوبية وصفاتها وذلك أيضاً ظاهر الاستحالة .

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضاً أظهر بطلانه لأن قول القائل أن العبد صار هو الرب كلام متناقض فى نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقاً أن قول القائل إن شيئاً صار شيئاً آخر محال الإطلاق لانا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل أن زيداً صار عمراً واتحد به

Marfat.com

فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجود وعمرو معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه الأربع فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لايوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قدتجتمع فى ذات واحدة ولا تتباين محالها ولاتكون القدرة هى العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض بالبعض وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وان كان أحدهما معدوماً والآخر موجوداً فلا اتحاد إذ لايتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال ، هذا جار فى الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فإنه يستحيل أن هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم ، والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو ولا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء فإنهم لأجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وذلك مؤول عند الشاعر فإنه لايعنى به أنه هو تحقيقاً بل كأنه هو فإنه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغى أن يحمل قول أبى يزيد حيث قال (انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو) ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فإذا لم يحل فى القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقاً به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقاً.

Marfat.com

وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن قول الشاعر تارة يقول كأنى من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فإن من ليس له قدم راسخة فى المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك فى ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله بل غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع فيها صورة متلونة فيظن أن تلك الصورة هى صورة المرآة وأن ذلك اللون لون المرأة وهيهات . بل المرآة فى ذاتها لالون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هى صورة المرآة حتى أن الصبي إذا رأى إنساناً فى المرآة ظن أن الإنسان فى المرآة فكذلك القلب خال عن الصور فى نفسه وعن الهيئات وإنما هيئته قبول معانى الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون كالمتحد به لا أنه متحد به تحقيقاً ومن لايعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لاخمر وتارة يقول لازجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وقول من قال منهم :

أنا الحق فأما أن يكون معناه معنى قول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وأما أن يكون قد غلط فى ذلك كما غلطت النصارى فى ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وقول أبى يزيد إن صح عنه (سبحانى ما أعظم شأنى)

Marfat.com

إما أن يكون ذلك جاريا على لسانه فى معرض الحكاية عن الله تعالى كما لو سمع وهو يقول (لا إله إلا أنا فاعبدنى) لكان يحمل على الحكاية وإما أن يكون قد شاهد كمالا لاحظه من صفة القدس على ماذكرنا فى الترقى بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة من الحظوظ والشهوات فأخبر عن قدس نفسه فقال سبحانى ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق فقال ماأعظم شأنى وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق فلا نسبة له إلى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون قد جرى هذا اللفظ على لسانه فى سكر وغلبة حال فأن الرجوع إلى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الألفاظ الموهمة وحال السكر ربما لايحتمل ذلك فإن جاوزت هذين التأويلين إلى الاتحاد فذلك محال قطعاً فلا تنظر إلى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغى أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(وأما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال أن الرب حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لاتصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان ووجه استحالة الحلول لايفهم إلا بعد فهم معنى الحلول فإن المعانى المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يعلم نفيها أو إثباتها فمن لايدرى معنى الحلول فمن أين يدرى أن الحلول موجود أومحال فنقول المفهوم من الحلول أمران أحدهما النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكون فيه وذلك لايكون إلا بين جسمين فالبرىء عن معنى الجسمية يستحيل فى حقه ذلك . والثانى النسبة التى بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى فى هذا المعرض فإن كل ماقوامه بنفسه ينكشف له جلية الحق

Marfat.com

ويصير مستغرقاً به فان نظر معرفته فلا يعرف إلا بنفسه يستحيل أن يحل فى ما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى وإذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله تعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى إلا ما أشرنا إليه فى التنبيهات وذلك يمنع من إطلاق القول بأن معانى أسماء الله تصير أوصافاً للعبد إلا على نوع من التقييد خال عن الإيهام وإلا فمطلق هذا اللفظ موهم .

فإن قلت فما معنى قوله إن العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول ؟ .

فاعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن ، والعبد فى ذلك مشغول بنفسه عن ربه إلا أنه مشتغل بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وإنما الوصول هو أن ينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقا به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله تعالى وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولا بكله مشاهدة وهما لا يلتفت فى ذلك إلى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهى البداية وإنما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو ، وذلك هو الوصول .

فإن قلت الكلمات الصوفية تنبىء عن مشاهدات انفتحت لهم فى طور الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقل ؟

فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر فى طور الولاية ما يقضى العقل باستحالته نعم يجوز أن يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل . مثاله أنه يجوز أن يكاشف الولى بأن فلاناً سيموت غداً ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز أن يكاشف بأن الله غداً سيخلق مثل

Marfat.com

نفسه فإن ذلك يحيله العقل لا أنه يقصر عنه وأبعد من ذلك أن يقول : إن الله سيجعلنى مثل نفسه وأبعد منه أن يقول : إن الله سيصيرنى نفسه أى أصير أنا هو ، لأن معناه أنى حادث والله — يجعلنى قديماً ولست خالق السموات والأرضين والله يجعلنى خالق السموات والأرضين وهذا معنى قوله نظرت فإذا أنا هو ، إذا لم يؤول وحمل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز أن يكاشف ولى بأن الشريعة باطلة وإنها وإن كانت حقاً فقد يقلبها الله باطلا وأنه جعل جميع أقاويل الأنبياء كذباً وإن من قال يستحيل أن ينقلب الصدق كذباً فإنما يقول ببضاعة العقل فإن انقلاب الصدق كذباً ليس بأبعد من انقلاب الحادث قديماً والعبد رباً ومن لا يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن — يخاطب فليترك وجهله .

* * *

قلنا : هذا فصل مهم جداً فى بيان صوفية الغزالى ذكرناه بطوله لأنه يبين بياناً شافياً أن الغزالى رحمه الله دخل فى الصوفية بعلمه وعقله وأن تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله لا يقبل فى عقيدته ما لا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبى حامد بعلمه وعقله حصنه من مزالق الجموح عند الصوفية وجعله يردد فى كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجليلة (لا تنظر إلى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغى أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال) .

للغزالى فصل آخر فى كتاب (المقصد الأسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الاشتباه الذى قد توهمه بعض عبارات منسوبة إلى أكابرهم فقال : (إن خاصية الإلهية أنه الموجود الواجب بذاته التى عنها يوجد كل مافى الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال .

Marfat.com

وهذه الخاصية ليست إلا لله تعالى ولا يعرفها إلا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها إلا هو أو من كان مثله ، وإذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فإذا الحق ما قاله الجنيد رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعرف الله إلا الله تعالى) ولذلك لم يعط أجل خلقه إلا أسماء حجبه بها فقال : سبح اسم ربك الأعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

وقيل لذى النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهى ؟ فقال (أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفى والتعطيل ، وذلك لعجزهم عن فهم مثل هذا الكلام.

وأنا أقول : لو قال القائل : لا أعرف إلا الله تعالى ، كان صادقاً ، ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكان صادقاً . ومعلوم أن النفى والإثبات لا يصدقان معاً ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فإن صدق النفى كذب الإثبات وبالعكس ، ولكن إذا اختلف وجه الكلام تصور الصدق فى القسمين .

فإن قلت : فقولنا : أنه الواجب الوجود الذى عنه وحده يوجد كل ما فى الإمكان وجوده عبارة عن حقيقته ، وقد عرفنا هذا ؟ فأقول: هيهات هيهات ، فإن قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغنائه عن العلة والفاعل، وهذا يرجع إلى سلب السبب عنه ، وقولنا : يوجد عنه كل موجود يرجع إلى إضافة الأفعال إلى الله تعالى ...

فإن قيل : فما السبيل إلى معرفته ؟ فأقول : لو قال لنا صبى أو جنين ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع وإدراك حقيقته ؟ قلنا : ها هنا سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والآخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه ،

Marfat.com

وهذا السبيل الثانى هو السبيل المحقق المفضى إلى حقيقة المعرفة ، فأما الأول فلا يفضى إلا إلى توهم وتشبيه للشيء أن يسمى لذة ، ومهما ظهرت الشهوة وذاق طعمها علم قطعا أنه لا يشبه حلاوة السكر ، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذى توهمه . .

وكذلك لمعرفة الله سبيلان . أحدهما قاصر ، والآخر مسدود ؛ أما القاصر فهو ذكر الأسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا فإنا عرفنا أنفسنا قادرين عالمين أحياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك فى أوصاف الله ، وعرفنا بالدليل ففهمناه فهما قاصرا كفهم العنين لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر . . وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الأوصاف أيضا إبهام ، وتشبيه ، ومشاركة فى الإسم بما لا يشبهه . . أما الإبهام فإنه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر فى الاسم ، لكن نقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شيء فهو حى لا كالا حياء ، وقادر لا كالقادرين . وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر الصبى أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهـــذا السبيل مسدود ممتنع ، إذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل إلى المعرفة المحققة لا غير ، وهو مسدود قطعا إلا على الله تعالى وتقدس وحده ، فإذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى . . .

فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا ، لم يحصل أهل الأرض والسماء من معرفة الله إلا على الأسماء والصفات ؟ . .

فإن قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هى أنهم يعرفونه وأنهم لا يمكنهم البتة معرفته فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية

Marfat.com

المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه إلى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ، وهو الذى أشار إليه الصديق الأكبر حيث قال : (العجز عن درك الإدراك إدراك) بل هو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم يرد أنه عرف منه مالا يطاوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه : أنى لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك ، وإنما أنت المحيط بها وحدك . .

ويتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت .

فإذا قد عرفت كيف يتفاوت الخلق فى بحار معرفه الله ، وأن ذلك لانهاية له وعرفت أن من قال : لايعرف الله إلا الله فقد صدق ، ومن قال : لا أعرف إلا الله فقد صدق ، فإنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله .

ثم ختم الإمام الغزالى هذا الفصل بقوله : (ولقبض عنان البيان فقد خضنا لجة بحر لاساحل له ، وأمثال هذه الأسرار لاينبغى أن تبتذل بإيداعها الكتب ، وإذ جاء عرضها هنا غير مقصود فلنكف عنه) .

والغزالى رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والرياضة والقيام لله تعالى بحق العبودية من استدامة الاذكار والجد فى وظائف العبادات ـ والامعان فى النوافل وتكلف المشاق فى محاسبة النفس ومراقبتها حتى كان هذا النهج معروفا به منسوبا إليه بين طوائف المتصوفين . .

ومن هنا عقد بعض متأخرى الصوفية موازنة بين طريق الغزالى ، وطريق غيره من أرباب القلوب ، قال ابن المبارك السجلماسى فى كتاب

Marfat.com

الإبريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدباغ : ما الفرق بين طريقة الولى العارف الشاذلى وأتباعه ، وطريقة الغزالى وأتباعه حتى أن الأولى مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة والأخرى مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرهما فهل هما سيدى متوافقان على الرياضة وإنما يأمر الشاذلى بالشكر بعد القرب للوصول أو عنده ، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية وهل الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد أولا يمكن أن ينتفع بإحداهما إلا بالإعراض عن الأخرى .

فأجاب رضى الله عنه بأن طريقة الشكر هى الأصلية وهى التى كانت عليها قلوب الأنبياء والأصفياء من الصحابة وغيرهم وهى عبادة الله على إخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز والتقصير وعدم توفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى للقلب على ممر الساعات والأزمان فلما علم تبارك وتعالى الصدق فى ذلك أثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح فى معرفته ونيل أسرار الإيمان به عز وجل .

فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والسهر ودوام الخلوة حتى حصلوا على ماحصلوا ، فالهجرة فى طريق الشكر كانت من أول الأمر إلى الله وإلى رسوله لا إلى الفتح ونيل الكشوفات ، والهجرة فى طريق الرياضة كانت للفتح وهو فى الأولى هجومى لم يحصل من العبد تشوق إليه فبينما العبد فى مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب إذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة الشكر أصوب وأخلص والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها فى الأولى رياضة القلوب بتعلقها

Marfat.com

بالحق سبحانه وإلزامها العكوف على بابه واللجوء إلى الله فى الحركات والسكنات والتباعد عن الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل على الدوام وإن كان الظاهر غير متلبس بكبير عبادة ولذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتى بسائر وظائف الشرع التى تقتضيها رياضة الأبدان .

ثم قال الشيخ الدباغ : والغزالى أمام حق وولى صدق ولا تنافى بين الطريقتين فيمكن للعبد أن يعلق قلبه بالله عزوجل فى سائر حركاته وسكناته ويقيم ظاهره فى المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا أنهما منهجان عند المتصوفة . عبر عنهما الإمام العليم أبو سعيد الخراز فى بيان المعرفة فقال : والطريق الموصل إليها أنها (تأتى من عين الجود ، ومن بذل المجهود) فعين الجود فتح التفضل للشاكرين ، وبذل المجهود فتح الجزاء للمتعبدين المجاهدين.

اللهم إنى أسألك مغفرة تطاولى إلى الحديث عن مقامات أوليائك ، فإنى أحبهم وقصدت تحبيبهم إلى من يريد سدك طريقهم فى الوصول إلى رضاك .

والحمد لله على نعمة التوفيق .

(تم بحمد الله)

Marfat.com

Marfat.com

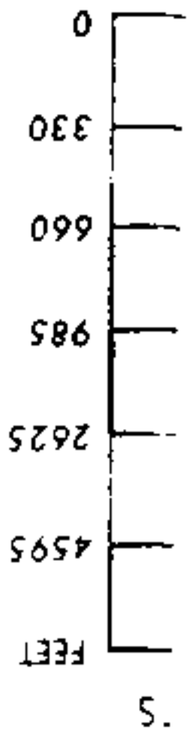

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها محمد عبد الرازق

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

ص
٣٠

Marfat.com

Marfat.com

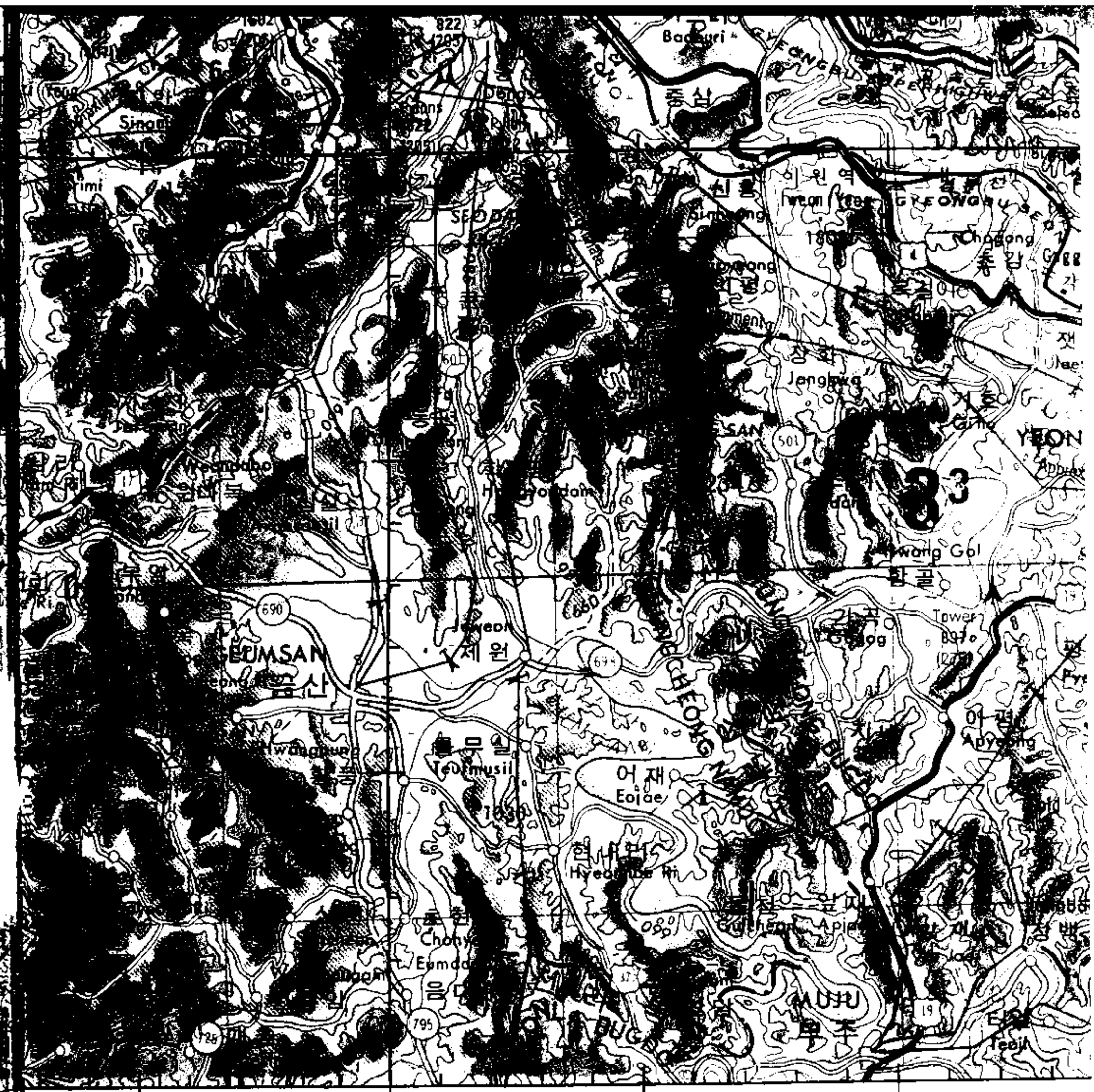

Lithographed by DMAAC 6-94

OF EQUAL MAGNETIC VARIATION FOR 1990
ANNUAL RATE OF CHANGE 1' INCREASE)

RELIABILITY OF THIS GRAPHIC

(as determined by standard practices)

PLOTTING ACCURACY 90 ASSURANCE	
Horizontal	1036 ft.
Contours	165 ft.
Date of information	Jan. 1994

Compiled from best available source materials.

BOUNDARY REPRESENTATION IS NOT NECESSARILY AUTHORITATIVE

도로번호는 대통령령 제10247호 및 건설부령에 의거 81년6월1일에 번호를 적용하였음

ROUTE NUMBERS ARE BASED ON THE ROUTE NUMBER CHANGED JUNE 1981 BY THE MOC

도엽내의 1차선 도로폭은 2.5미터(8피트)인것으로 간주하였음.

On this graphic a lane is generally considered as being 2.5 meters (8 ft.)

ALL PLACE NAMES OF SOUTH KOREA ARE IN ACCORDANCE WITH MINISTRY OF EDUCATION (MOE) ROMANIZATION SYSTEM

대청호는 최신정보에 의거 1982년 12월에 수정하였음
DAE CHEONG HO is revised by new information
December 1982

송전선은 1980년 6월에 수정한 지상군용 1:250,000 에 의거 1984년 10월에 수정하였음

Power transmission line is revised by the 1:250,000 Scale map of a ground military purpose revised June 1980 on October 1984.

LIMITED DISTRIBUTION

Distribution authorized to the Department of Defense, U. S. DOD contractors and U. S. Government Agencies supporting DOD functions (by authority of Defense Mapping Agency, 30 May 1990). Other requests shall be referred to Headquarters, DMA, ATTN: SOP. Destroy as "For Official Use Only"

DMA STOCK NO 1501ANJ5213

ED

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com